أحـــمـــــر "٥"

عمر القيصر

"مجموعة قصصية"

اسم العمل: أحمر ٥/مجموعة قصصية
الكاتب: عمر القيصر
رقم الإيداع :2018/25161
الترقيم الدولي: 978-977-6056-93-0
مراجعة التصحيح اللغوي والتنسيق الداخلي: هنـاء عودة
تصميم الغلاف: محمد محسن

شهرزاد للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
القاهـرة
هاتف: 01091744511
shahrazadpub@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أحمر "٥"

إليكَ ..

يا أصل الحكايا ..

ســـارة .. !

أحمر "٥"

(١)

استيقظ "حسين" قبل العصر بقليل، جلس متربعاً على البطانية التي يستخدمها كفراش للنوم، أشعل سيجارة وهو يستند برأسه إلى الحائط، أخذ نفساً عميقاً ثم أطلقه وهو يحرك شفتيه يميناً ويساراً لتتراقص خيوط الدخان المنطلقة من فمه، أنهى سيجارته وتمطى في كسل قبل أن ينهض متجهاً إلى الباب، أسند جانب وجهه إلى القضبان المعدنية أعلى الباب وهو يرفع صوته بالنداء:

- صبح صبح يا عم "مساعد".

مرت لحظات قبل أن يأتيه صوت "مساعد" وهو يرد تحيته قائلاً:

- صباح الفل يا "حسين".

دخل صوت آخر في الحديث:

- صبح صبح يا "حسين".

رد "حسين" التحية:

- صبح صبح يا "أبو منة"، الجماعة جايين إمتى؟

أجابه "أبو منة":

- بكرة إن شاء الله .. لو كان لينا عمر.

أصاب "حسين" الوجوم، نظر إلى بدلته الحمراء، جلس في بطء خلف الباب، دار بنظره في الغرفة شديدة الضيق، وقع نظره على الطعام المتروك على الأرض، زحف على أربع حتى وصل إليه، وبدأ الأكل.

(٢)

يحتل "حسين" الزنزانة رقم "٥"، أما "مساعد" أكبرهم سناً ففي الزنزانة رقم "٢"، بينما يقبع "أبو منة" في الزنزانة رقم "٣"، وعلى مدار الأسابيع الماضية خلت الزنزانتان "١" و"٤" من ساكنيها.

(٣)

جلس "حسين" خلف المنزل المطل على المصرف الشرقي للقرية يدخن سيجارته بعيداً عن أعين أبيه، أسند رأسه إلى الحائط وأغمض عينيه وهو يسترجع صورة "محسنة" زوجة "عبد الله" وهي تجلس على الترعة تغسل ملابسها واضعة جلبابها بين فخذيها الممتلئين ناصعي البياض، تخيلها وهي ترفع جلبابها أكثر لتكشف عن خبيئتها وتدعوه إليها، سرت الرجفة في جسده الشاب، راح ينتصب وينتفض داخلها، غمره العرق، كتم آهاته وعروقه تنتفخ، هدأت ثورته، مسح يده في الحائط، عدل من ملابسه، دخل لينام ولاتزال صورة "محسنة" تحتل خياله.

(٤)

وقف الجميع يتسامرون خلف الأبواب، بدأوا بالحديث عن زيارة "أبو منة" وما حدث فيها، شعر "حسين" و"مساعد" بنبرة وجع تغلف نبراته وهو يحاول أن يختصر الحديث عن الزيارة قدر المستطاع. كان "أبو منة" أكثرهم حزناً وندماً على الحياة التي أضاعها في ثورة غضب حين علم أن هناك من أهان زوجته فقرر الانتقام، وضع خطة، أحضر سلاحاً، ضرب خصماً، سالت دماء، همد جسد، وتوقفت أنفاس، لكنه لايزال يلعن غضبه مع كل صباح، ويتمنى فقط لو كانت له رجعة فيتبرأ منه لما أوصله إليه الآن.

لم يرد أي منهما أن يضغط عليه ليستفيض في الحديث، فقدر ما تسعدهم تلك الزيارات، قدر ما تثير حزنهم وتضعف من قدرتهم على الاحتمال والانتظار، فكل زيارة تحمل لهم أنباءاً عن أحداث لم يكونوا فيها حاضرين، أبناء كبروا بعيداً عنهم، أفراد ماتوا وشيعوا دون أن يلقوا عليهم نظرة الوداع، وآخرون تزوجوا فلم يهنئوهم أو يرقصوا في أفراحهم.

(5)

أمسك "حسين" بيدي "صباح" ذات الخمسة عشر ربيعاً، نظرت إلى عينيه البنيتين في خجل بينما اخترقت نظراته نهديها البارزين، سمعا خطوات تعبر بالقرب من مكانهما عند الحقل فأفلتت يده في سرعة، ضمها إلى صدره في قوة كي يهدأ من روعها، تحسس ظهرها بيديه، تملصت منه، حاول أن يقتنص منها قبلة، دفعته بعيداً عنها، هرولت عائدة وهي تداري وجهها بطرحتها، وقف وحده وصدره يعلو ويهبط في حنق بعد أن أشعلت ناره وتركته، حاول أن ينأى عنها بتفكيره حتى تخمد ثورته فيستطيع الخروج من مخبأه، لم يطاوعه جسده، لم يهدأ، ولم يتمكن من السيطرة على شهوته، عاد يفكر في "محسنة" من جديد، تخيل جسدها العاري، رغبتها الجامحة، حاجتها الشبقة إلى فحولته، تسارعت أنفاسه، تصلبت قدماه، أغمض عينيه في قوة حتى واتته رعشة النهاية، جلس مكانه يستريح لوهلة، ثم خرج متجهاً إلى المقهى القريب.

(٦)

تمدد "مساعد" على ظهره متوسداً يديه وهو ينظر إلى السقف، سرح بعيداً في أيام لم يعد يتذكرها إلا لماماً، رأى خطوطاً باهتة لحدود قرية صغيرة نشأ فيها، شمس حارقة، أعواد صلبة، نساء يشبهن الرجال في طباعهن، ورجال لا يعرفون إلا القوة حلاً لكل المشكلات. تذكر يوم زواجه، أولاده الخمسة الذين أنجبهم تباعاً، ليلة اجتمع فيها رجال

العائلة ليختاروا من سيحمل شرف الثأر، وساعة حمل فيها سلاحه وتربص بغريمه ليرديه صريعاً، كان يؤمن أنه قد حقق عدالة وضعوا ميثاقها منذ الأزل، وأعاد إلى عائلته كرامتها بدم القتيل، فلم ينكر ولم يحاول الهرب. وحين ارتدى "البدلة الحمراء"، تم عزله في زنزانة انفرادية مكث فيها أكثر من عام حتى صدر حكم نهائي بتأييد الإعدام، حاول قدر المستطاع أن يثبت على موقفه، ألا يتراجع أو يظهر خوفاً أو ندماً، وراح رجال العائلة يزورونه تباعاً كي يشدوا من أزره ويمجدوا فعله العظيم.

(٧)

انطلق آذان الفجر عالياً ليتردد في أرجاء السجن، تنفس الجميع الصعداء وهم يستعدون للخلود إلى النوم، فقد كان الفجر هو موعد الفصل بالنسبة لهم، وكلما اقترب الفجر كان الهلع والرعب يدب في قلوبهم في انتظار من يفتح على أحدهم الزنزانة ليخبره أن موعده قد حان، لقد أصبح أمامهم يوماً آخر يحيونه إذن، يوم آخر من الأمل والألم والانتظار.

(٨)

وقف "حسين" ينتظرها بين أعواد الذرة ساكناً متربصاً، منذ الصباح وهو لا يطيق جسده، يشعر بأشواك تجعله لا يحتمل حتى ملابسه، حاول أن يهدأ من ثورته بنفسه، لكن تلك الطريقة لم تعد تكفيه، حاصره جسدها وحرض عليه شهواته، خرج كي يتخلص من طيفها فلمحها تعبر أمامه متجهة إلى الحقل، ولم يشعر بنفسه إلا وهو هنا ينتظرها. ظل على حاله وهو يتخيلها تستجيب له وتمنحه كل ما أراد وأكثر كثيراً مما كان يريد، استخدم كل مهاراته وطاقته المكبوتة معها، وعلمته من فنون الهوى ما كان يجهله، انتبه من شروده وهو يراها عائدة، وفي لمحة خاطفة جذبها من ملابسها لتستقر معه بين الأعواد، أطلقت صرخة كتمها بيده في سرعة، انتفضت في فزع فأشار إليها بالصمت وهو يرفع يده عن فمها ببطء.

تقطعت أنفاسها وهي تلهث من المفاجأة قائلة:

- أنت اتجننت يا واد يا "حسين"؟ عاوز إيه؟

نظر إليها بعينين زائغتين وهو يقول:

- واد إيه بس، أنا عندي عشرين سنة وخلاص بقى مش قادر .. أنا عايزك أوي.

نظرت إليه "محسنة" في فزع غاضب وهي تقول:

- أنت اتجننت يا واد؟ ودين النبي لكون قايلة لأبوك وفاضحاك ومفرجه عليكم البلد.

تحشرج صوته وهو يضمها إليه في قوة هامساً:

- أخد اللي أنا عاوزه وبعد كده اعملي اللي انتي عاوزاه.

(٩)

انتفض "حسين" من نومه على صوت جلبة وهرولة في الطرقة، قفز ليتعلق بقضبان الباب في محاولة لمعرفة ما يدور، نادي على الشاويش في اضطراب:

- عم "شحتة" .. عم "شحتة" .. هو فيه إيه؟

رد عليه الشاويش في صرامة متعجلة:

- خش جوه دلوقت يا "حسين".

صار صوت "حسين" أكثر توتراً وهو يسأله في إصرار:

- طب قولي بس فيه إيه؟

أجابه الشاويش في اقتضاب:

- عمك "مساعد" تعيش أنت.

(١٠)

كان خبر العثور على "محسنة" مقتولة وسط الحقول وقد تمزقت ملابسها وتم اغتصابها بوحشية صدمة للجميع، ثارت ثائرة البلدة، خضع كل الأهالي لتحقيقات مكثفة، أنكر "حسين" في بداية الأمر أي علاقة له بما حدث، وبعد تضييق الخناق عليه اعترف بأنه لم يكن ينوي قتلها، وأنه كان يعتقد أنها ستبادله الرغبة وتطارحه الغرام، لكن "محسنة" هددته بفضح أمره وأن أهل البلدة قد يقتلونه وأهله لمحاولته تلك، هداه خوفه إلى التخلص منها، أمسك بعنقها واعتصره بكل ما أوتي من قوة، قاومت، توسلت بعينيها الجاحظتين، تشنجت، انتفضت، سكنت، جلس بجوار جثتها يرتجف وهو لا يدري ماذا يفعل، نظر إلى نهديها النافرين اللذين برزا من ملابسها التي تمزقت أثناء العراك، تحسس فخذيها اللذين كانا لاتزال تنضح منهما سخونة الحياة، مزق ملابسها، اندفع فيها بكل قوته، ضاجعها بعنف مكبوت انفجر داخلها، تأوه لإحساس يختبره لأول مرة في حياته، نام على صدرها وهو ينتفض انتفاضته الأخيرة فوقها قبل أن يسحب نفسه منها ويهرب عائداً إلى منزله.

(١١)

التصق "حسين" بالحائط في فزع وهو يستمع إلى صوت الخطوات التي تتقدم في الطرقة قبل الفجر بقليل، تسارعت دقات قلبه في جنون، تقطعت أنفاسه، شعر بالدنيا تدور من حوله، مسح دموعاً ساخنة سالت على وجنتيه الناحلتين، أغمض عينيه في قوة، استمع إلى صوت الباب وهو يفتح بصريره المعدني الثقيل، لم يقو على الحركة، انتظر أيديهم ترفعه وتحمله خارجاً، طال الانتظار، فتح عينيه في رعب، لم يجد أمامه

أحداً، نظر إلى الباب المغلق، زفر في انكسار حزين، وقبل أن يعود للتمدد على الأرض أتاه صوت "أبو منة" الباكي من الطرقة صائحاً:

- مع السلامة يا "حسين" .. مع السلامة يا صاحبي!

ضيف شرف

(١)

أغلقت الباب خلفها في سرعة وهي تتجه إلى قاعدة الحمام، تقيأت ما في جوفها ومعدتها تتقلص في ألم، رفعت رأسها وأنفاسها تتلاحق، نظرت إلى صورتها المنعكسة في المرآة، دققت النظر في الهالات السوداء التي بدأت تحيط بعينيها، تحسست صدرها، شعرت بطراوته وانتفاخه الزائد عن اللازم، وذلك الوخز الذي صاحب ضغط أصابعها، اتسعت عيناها وهي تحدق في وجهها المضطرب، تراه قد حدث مرة أخرى؟

(٢)

حاولت أن تحافظ على هدوئها وهي تجلس في فراشها مستندة برأسها على ركبتيها، تنفست في رتابة وانتظام كي تستعيد سيطرتها على دقات قلبها، أخذت تتمتم لنفسها أنه لا داعي للعجلة واستباق الأحداث، لا داعي لوضع احتمالات وتوقعات، لا يجب أن تنتظر شيئاً، فقد يكون الأمر كله في النهاية.. لاشيء.

(٣)

تركت الفراش، اتجهت إلى النتيجة المعلقة على الحائط، راحت تنظر إليها في توتر، لم يعد هناك مجالاً للشك، لقد تأخرت دورتها الشهرية عن موعدها، كما حدث في كل المرات السابقة. أسرع قلبها في خفقانه، تشتت أفكارها، لم تستطع أن تتمالك نفسها، لكنها أجلت إعلان الخبر حتى تقوم بآخر إجراء للتأكد من أنها .. حامل.

(٤)

وقفت واجمة وهي تمسك بأداة اختبار الحمل التي ظهر على فتحتها خط أزرق دلالة على وجود طفل جديد يتكون في أحشائها، سالت من عينيها دموع الخوف المختلط بالأمل،

لم يكن هذا حملها الأول، فعلى مدار سنوات كانت تحمل مرة بعد أخرى، وتفقد طفلاً بعد آخر، وتزور طبيباً بعد آخر، ليحاول الجميع إقناعها بضرورة الإقلاع عن المحاولة، فرحمها لن يحتمل الطفل إلا شهوراً معدودة، ثم يتخلص منه تلقائياً، وهي لن تجني من ذلك سوى الألم والتعب، وفي النهاية قد يحدث ما لا يحمد عقباه.

(٥)

بينما كانت هي تتشبث بالأمل، لم يكن هو يرى في كل حمل سوى خسارة جديدة وألماً أكبر، كانت تسمي الجنين منذ اللحظة الأولى "طفلي"، أما هو فكان يراه "مشروع طفل" قد لا يكتمل، لم تستطع أن تشرح له، ولم يتمكن هو من الفهم، لكنها كانت تعذره، فهذا شيء لن يدركه إلا بجسده، ولم يكن جسده هو الذي يفعم بالأمل، والذي يمنى بالخسارة، لم يكن جسده هو الذي يضم ذلك الفراغ الذي خلق كي يملأ وكي لا يظل فراغاً، لم يكن هو من يشعر بالنقص وفراغ جسده لا يمتلىء ولا ينتج، لم يكن جسده هو الذي يعاني، الذي يخضع للجراحات، التحاليل، والعقاقير من أجل محاولة واحدة صحيحة للإخصاب، واحدة فقط، لقد كان جسدها هي من يشعر بالطفل، يحبه، ثم .. يفقده.

(٦)

لم يشعر بالضيق لخبر حملها، كما لم تبدو عليه إمارات الفرح، كان من الواضح أنه قد اعتاد الأمر أكثر من اللازم، ورغم هدوئه الظاهر كان الحزن يملأ قلبه من أجلها، كان يعلم أنها ستفقد ذلك الجنين أيضاً، وستدخل في حالة الاكتئاب الذي يلازمها بعد كل إجهاض، ستظل تبكي وتتحدث عن عدم جدواها كامرأة، وأنها خلقت كي تظل شجرة بلا أغصان، ستمتنع عن الطعام ويضعف جسدها، وسيحاول هو بكل ما أوتي من قوة أن يقنعها أنه من المؤكد أن القدر يجد خيرهما في الحياة بلا أبناء، لكنها ستصر وتطلب الطلاق في نهاية الأمر حتى يتزوج بأخرى ويحقق حلمه بإبن أو إبنة تحمل اسمه، ومثل

كل مرة سينتهي الأمر بقسم ويمين أنه لا يرغب سواها، وأن الأطفال ليسوا على قائمة أولوياته بالمرة.

(٧)

أصبحت علامات حملها أكثر وضوحاً بمرور الأيام، صارت أكثر نهماً لتناول الطعام رغم أنها باتت تشعر بتغير مذاقه في فمها، وكأنها تحاول تقوية الجنين حتى يقاوم الطرد المحتمل من أرض رحمها، طالت فترات نومها وهي تشعر بالإجهاد والتعب، وأصبح "الحمام" هو صديقها المقرب في فترات صحوها، حاول كل من حولها احتمال نوبات عصبيتها وقلقها المزمن، كان الجميع يحصون أيام حملها وهم يترقبون حدثاً من اثنين، إما أن يكتمل الحمل وتحدث المعجزة، أو ..

(٨)

في الموعد المحدد يتبدد الحلم، تشعر بالألم يمزق أحشاءها، ترتعش، ينتفض جسدها، تجحظ عيناها وهي تشعر بالخطر المقبل، تسرع إلى الحمام، تغلق الباب في قوة، تنظر بين قدميها وهي تنتظر لحظة تتمنى ألا تجيء، وفي لمحة خاطفة ينفجر الطفل، تتناثر شظاياه، تسيل الدماء حارة قانية، ترقبها وخطوطها تتسابق على قدميها لترسم لوحة فقد جديدة على أرض حياتها القاحلة، تتخذ الخطوط طريقها إلى مصفاة الحمام، تجثو على ركبتيها وهي تحاول أن تمنع الدماء من الانزلاق في البالوعة، تصرخ في هيستيرية وهي تحاول أن تنقذ الطفل من الغرق، تجمع الدماء بيديها، تمسح بها صدرها الذي حرم لذة الإحساس ببراءة فمه الصغير، تطلق آخر صرخاتها الملتاعة قبل أن تنسحب من معركتها مع ألم لم تعد تقوى على مجابهته.

(٩)

بين كل فقدان للوعي وآخر تنتابها نوبة هذيان، ترى كل من حولها أشباحاً، الجميع يمدون أيديهم لسرقة وليدها، كلهم يضمرون لها الشر، تسمع همسهم وهم يخططون لوأد طفلها، تحاول التملص من قيودها لكن جسدها لا يستجيب لرغباتها المحمومة، تصرخ طالبة النجدة فيصطدم صوتها بفمها المطبق في إحكام، تلمح في عيونهم بريق النصر، تنظر إلى أيها الواقف عند رأسها يتلو طلاسم سحره الأسود، تدور عيناها في رعب فتقع على أمها الممسكة بيدها كي تمنعها من الحركة، تتوسل إليها أن تترك طفلها فلا ترى منها سوى ابتسامة شامتة تلعب على شفتيها، تتجه بنظراتها إلى ملاذها الأخير، زوجها، فتصعقها نظراته النارية وملامحه الغاضبة، لابد أنهم قد تآمروا عليها حتى يجهضوا حلمها في كل مرة قبل أن يصبح حقيقة، لماذا فعلوا بها هذا؟ لماذا قتلوها؟

(١٠)

وضع الأب حقيبتها أرضاً وهو يبتسم لها في إشفاق قبل أن يتخذ طريقه إلى الخارج، ساعدتها الأم على تغيير ملابسها، أرقدتها في فراشها وشدت عليها الغطاء، أطفأت نور الحجرة ولحقت بأبيها وزوجها في الصالة، سالت دموعها ونظرات الجميع تلتقي في تساؤل حزين، من منهم سيخبرها بما حدث؟ من منهم سيشرح لها ما كان؟ وكيف سيخبرونها أنها هذه المرة لم تفقد جنينها وحده، بل فقدت رحمها أيضاً؟

حـد الله

(١)

صعدت "إلهام" الدرجات القليلة المؤدية إلى الشقة التي تقنطها مع أختها "سلوى" بالطابق الأرضي بأحد الأحياء الشعبية، فتحت الباب وضوضاء الشارع تلاحقها كي تسبقها إلى الدخول، أغلقت الباب خلفها في سرعة وهي تخلع طرحتها في تأفف من الحر المستعر بالخارج، تفقدت أرجاء الشقة الصغيرة بنظرها من مكانها قبل أن تتجه إلى المطبخ حيث كانت "سلوى" أمام الموقد بقميص نومها المنزلي.

وقفت "إلهام" واضعة إحدى يديها في خصرها بينما استندت بالأخرى على إطار باب المطبخ الخشبي الخالي وهي تقول:

- الله يفضحك يا بعيدة، ريحة الحلاوة جايبة آخر الدنيا.

استدارات إليها "سلوى" رافعة أحد حاجبيها وهي تقول في استنكار:

- وإيه يعني؟ مبيعملوهاش؟ ولا شايفاني قاعدة بعملها على باب البيت؟

استدارت "إلهام" خارجة وهي تسألها:

- طب عملتي أكل بقى ولا هناكل الحلاوة؟

ردت "سلوى" في تهكم:

- لا يا عين أختك دي مش للأكل، أطفي عليها بس وأغرف وناكل.

خلعت "إلهام" عباءتها وألقت بها على السرير ثم ألقت بجسدها وراءها، وضعت يدها في صدرها وأخرجت ورقتين فئة المائتي جنيه دستها أسفل الوسادة، أغمضت عينيها في كسل وهي تستمتع بلفحات الهواء التي تضخها مروحة السقف العتيقة، أوشكت أن تغفو حين أعادها صوت "سلوى" إلى وعيها وهي تناديها لتتناول الطعام.

خرجت إلى الصالة لتجد "سلوى" متربعة على الأرض أمام الطبلية الصغيرة التي لم تجمع سواهما منذ ما يزيد عن عشر سنوات، جلست قبالتها وهي تشرع في تناول الطعام قبل أن تتوقف فجأة وهي تسألها:

- أنت لسه فاكرة شكل أمك يا "سلوى"؟

تنهدت "سلوى" وهي تنظر إليها قائلة:

- طبعاً فاكراها.

نظرت إليها "إلهام" في حزن وهي تقول:

- أمال أنا ليه ساعات كتيرة ملامحها بقت بتروح مني، وبقيت لازم أرجع لصورتها عشان أفتكرها كويس؟ تفتكري إنها زعلانة منا؟

تلعثمت "سلوى" وهي تقول في ارتباك:

- زعلانة منا إيه بس .. ما هو لازم ملامحها تروح منا شوية مش مفارقانا بقالها يجي عشر سنين ولا أكتر .. الله يرحمها بقى .. كلي كلي وبطلي عبط.

(٢)

لفت "سلوى" طرحتها بعد أن انتهت من ارتداء ملابسها وبعد أن حرصت على إظهار خصلة طويلة من شعر "القُصة"، أمسكت بزجاجة العطر وأغرقت جسدها وملابسها بذلك الرحيق النفاذ الذي لم تكن تحتاجه لتلفت إليها الأنظار، فقد كان قوامها وحده كفيلاً بتحريك أكثر الرجال فضيلة للحصول على حقه المشروع في النظرة الأولى، نظرت مرة أخيرة إلى المرآة كي تتأكد من زينتها، لون شفتيها، خطوط حاجبيها، وتحديد عيونها.

نادت على "إلهام" من وسط الصالة:

- أنا خارجة ويمكن أتأخر شوية .. أنتي مش خارجة؟

ردت عليها "إلهام" من حجرتها:

- لا أنا هريح شوية .. كفاية عليا نزولة الصبح.

سألتها "سلوى" وهي تمسك بمقبض الباب:

- طب أجيبلك حاجة معايا وأنا جاية؟

أجابتها "إلهام":

- أي حاجة حلوة .. خلي بالك من نفسك بس.

فتحت "سلوى" الباب وخطت إلى الخارج وهي تقول:

- من عيني يا عيني .. وأنتي كمان يا قمراية خلي بالك من نفسك .. باي.

(٣)

أمام دكان بقالته الصغير المتاخم لمنزلهما - والذي يصر أن يطلق عليه "سوبر ماركت" – جلس عم "معاطي" على كرسيه المتهالك حاملاً على كتفه سنواته الستين، وما أن رآها حتى استوقفها قائلاً:

- أنا زعلان منك يا "يا سلوى".

نظرت إليه في اهتمام وهي تقول:

- ليه بس يا عم "معاطي"؟

غمز لها بعينه التي أوشك الزمن أن يذهب بنورها وهو يقول:

- كان في ريحة حاجة حلوة طالعة من عندكم العصرية .. مش تفتكريني بحاجة طيب؟ هو مش الجار للجار برضه؟

رفعت "سلوى" حاجبها وهي تقول:

- الحلو بتاعنا ملكش فيه يا عم "معاطي" .. ولا مين عارف .. هبقى أجيبلك حتة وأنت اتصرف.

خفض "معاطي" صوته وهو يقول:

- والحاجة دي بقى ...

قاطعته "سلوى" قائلة في سرعة:

- قفل دلوقتي لحسن "أم جابر" جاية.

ارتد "معاطي" إلى الخلف في سرعة عند سماع اسم زوجته وهو يتظاهر بأنه ينظر في الاتجاه المعاكس وكأن "سلوى" لا تتحدث إليه هو فأطلقت ضحكة رنانة وهي تسير مبتعدة.

تهادت "سلوى" واهتزازات جسدها تتناغم مع إيقاع دقات قدميها في رقصة إغواء، رفعت طرف عينها إلى النساء المطلات من النوافذ الضيقة باهتة اللون، تظاهرت بأنها لا ترى نظرات الضيق وحركات الشفاه المستنكرة، تجاهلت في طريقها الجالسين على المقهى، آهات الشباب التي تلعن سوء حظهم، وتنهدات الرجال الذين يشتهونها بعيداً عن رقابة الزوجات.

(٤)

رغم كل ما يدور في عقول النساء، وما تضمره قلوب الرجال، دخلت "سلوى" كل بيوت المنطقة بدعوات من نسائها لعمل "الحلاوة" و"الفتلة"و"الصبغة" وغيرها من الزينة التي اشتهرت بها في المنطقة والتي لا تتقاضى عليها منهن أجراً، تلك الحرفة التي ورثتها عن أمها التي كانت تزين نساء المنطقة في بيوتهن كي توفر لابنتيها ما يسد رمقهما بعد أن هجرها الزوج دون دليل أو عنوان. وفي بيوتهن كانت تسمع الحكايات المشينة وفضائح الجارات والجيران، علاقة الأستاذ "نعيم" بطالباته من فتيات المنطقة، وزوجة "محروس" التي تخونه مع "عاطف" ابن جارهم البالغ من العمر عشرين عاماً، وعم "معاطي" الذي تسمح له النسوة بتحسس أجزاء جسدهن عرضاً فينسين أن يدفعن حساب ما أخذن عرضاً أيضاً، وفتيات يواعدن الشباب في مداخل البيوت ليسرقوا منهن القبلات وربما أكثر من ذلك بكثير، ثم ينتقلن إلى الشكوى من أزواجهن و"فراغة العين" و"الديل النجس" وقلة حياء الجارات وسوء الأخلاق وأجسادهن المباحة للأنظار، وينهين الحديث بامتداح أخلاقها وجمالها وأختها، ويدعون لهما بـ"ولاد الحلال".

ما أن تنهي "سلوى" مهمتها وتخطو خارج المنزل حتى تتنفس النسوة الصعداء، وتعبر كل منهن عن راحتها بعد أن كانت طوال الوقت تضع يدها على قلبها خوفاً من حضور الزوج أو الإبن في وجود تلك اللعوب الملعونة، فقد كن يخشين اشتعال نار الغواية التي تنفثها تلك الأفعى والتي لن تنتهي إلا بـ"خراب البيوت"، كن يتعجبن لمرحها وضحكها وإقبالها على الحياة، فمن هي في مثل سمعتها كان الأولى بها أن تتشح بالسواد باقي عمرها، فالجميع يعلمون أنها وأختها تتخذان من البغاء مهنة ووسيلة للتعيش، وتختتم النسوة جلساتهن بالاستعاذة بالله منها ومن أفعالها أو أن يبتلي الله إحداهن بقريبة من أمثالها.

(٥)

كانت الوقت يقترب من منتصف الليل عندما عبرت "سلوى" باب المنزل، وقبل أن تصعد أول درجة انتفضت صارخة في فزع عندما قفز من مخبأه أسفل بئر السلم المظلم وهو يشير إليها بالصمت قائلاً:

- "سلوى" أنا عايز أتكلم معاكي.

ابتلعت باقي صرختها وهي تضع يدها على صدرها كي تهدأ من ضربات قلبها الذي أوشك على التوقف، ابتلعت ريقها في صعوبة وهي تستند إلى الحائط عدة ثواني قبل أن تقول:

- عايز إيه يا "أشرف"؟ وهو في حد يستنى حد كده ولا الساعة دي؟

اقترب منها "أشرف" معتذراً وهو يقول:

- ما أنا مكنش ينفع أكلمك غير في وقت زي ده، أنتي عارفة "ميرفت" لو عرفت هتعمل مية حوار.

نظرت إليه "سلوى" في تحفز وهي تقول:

- تعرف إيه يا حبيبي هو إحنا بينا حاجة؟ وبعدين لما أنت خايف منها أوي كده موضوع إيه اللي مخليك نايملي تحت السلم لحد ما أرجع؟

تلفت "أشرف" حوله وهو يقول:

- هو إحنا صحيح مفيش بينا حاجة بس إن شاء الله هيبقى في.

زفرت "سلوى" في نفاد صبر وهي تقول:

- لخص يا "أشرف" وهات م الآخر، عايز إيه؟؟؟

اقترب منها "أشرف" قليلاً وهو يغمز بعينه قائلاً:

- ما أنتي عارفة اللي فيها، فهاتي أنتي م الآخر ولخصي.

تراجعت قليلاً لتبتعد بجسدها عنه وهي تقول:

- ماشي يا "أشرف" م الآخر أنت مش سكتي ومالیش فيك.
- ليه بقى إن شاء الله؟ اللي أنتي عايزاه كله هتخديه.
- ومراتك؟
- مالها مراتي؟ هو أنا بقولك هجوزك؟ وبعدين ما المنطقة كلها عارفة كل حاجة وابن منطقتك أولى من الغريب، أهو نبقى مننا فينا.
- طب خدها مني كلمة واحدة بقى عشان ننهي، أنا مالیش في أي راجل هنا أو أي واحد يخص واحدة أعرفها.
- ما تفكك بقى من الشويتين دول وتعالي نظبط .....

قاطعته "سلوى" وقد بدأ صوتها يعلو قائلة:

- بقولك إيه بقى اتكل عشان زمان مراتك بتدور عليك، يلا يا حبيبي.

نظر إليها "أشرف" في غضب مكتوم وهو يقول في غل:

- ماشي يا "سلوى" بشوقك .. سلام.

أغلقت "سلوى" باب الشقة خلفها وهي تزفر في ضيق، خرجت "إلهام" من الحمام في ذات اللحظة وهي تسألها:

- أنتي كنت بتكلمي حد على السلم؟
- آه يا أختي .. ده الزفت "أشرف" جوز "ميرفت" اللي في البيت اللي قصادنا.
- وده كان عايز إيه الساعة دي؟
- هيكون عايز إيه يعني؟ سيبك أنا بعرف أتعامل مع الأشكال دي كويس .. اتعشيتي ولا لسه؟
- لا كنت مستنياكي.
- طب حضري أنتي بقى لحسن أنا راجعة هلكاااانة.

(٦)

توالت طرقات خفيفة على الباب، خرجت "سلوى" على أطراف أصابعها من حجرتها حتى لا توقظ أختها، جاءها صوته المميز بنبراته الهادئة التي يعتريها التوتر كلما وقف ببابها في انتظار الدخول قبل أن يلمحه أحد، فتحت الباب في سرعة وأدخلته فاتجه إلى حجرتها مباشرة.

دخلت حجرة "إلهام" وأيقظتها في هدوء، نظرت إليها "إلهام" متسائلة عما تريد بعيون ناعسة، ربتت "سلوى" على كتفها وهي تقول:

- متقلقيش لو سمعتي صوت.

دفنت "إلهام" وجهها في الوسادة وهي تقول:

- هو شَرَف؟

كانت "إلهام" تعلم أنه لابد أن يكون "بدر"، فمنزلها منطقة محرمة، لا يدخله رجل، عداه، فهي تعلم أن "سلوى" شديدة التعلق به، رغم أنه كان يتظاهر أمام الجميع أنه يستنكر أفعالها، ومع ذلك ارتضت "سلوى" منه تلك المعاملة. لم تكن "سلوى" ضعيفة أو قليلة الحيلة أو ممن يؤثرن الانسحاب وتجنب الصدامات، بل على النقيض، كان الجميع يخشونها ويخافون "طولة لسانها" و"بجاحتها"، عكس "إلهام" الوديعة التي كانت تحل كل المشكلات بتجاهلها ليس إلا، ورغم ذلك كانت بلا حول ولا قوة أمامه.

أسندت "سلوى" رأسها على صدره العاري بعد أن انقض اللقاء، تخللت أطراف أصابعها شعيرات ذقنه المشذبة بعناية التي يحافظ عليها بطول معين يزيده وسامة ورجولة، أطلقت ضحكة مشاكسة وهي تتحسس صدره بأصابعها في دلال قبل أن تتسلل إلى خطوط بطنه بشعيراتها الخفيفة فأصابته رجفة شبقة، دار بأطراف أصابعه على ظهرها فدغدغها، أطلقت ضحكة مكتومة وهي تحاول التملص منه، زاد من دغدغادته، لفحت أنفاسها الساخنة رقبته وهي تهمس:

- على فكرة أنت بقيت شقي أوي.

اعتدل في جدية وهو يعقد حاجبيه قائلاً:

- أنا مبحبش الكلمة، الشقي ده المحروم من رحمة ربنا والعياذ بالله.

نظرت إليه في تعجب لم يلبث أن تحول إلى استرضاء وهي تقول:

- طب يا سيدي متزعلش، نخليها "بقيت جامد أوي"؟

رفع حاجبه في غرور وهو ينظر إلى ما بين قدميه قائلاً:

- ما أنا طول عمري جامد .. ولا إيه؟

أطلقت ضحكة أكثر علواً وهي تقول:

- مش بقولك أنت بقيت .. جامد.

ضربها على ظهرها مشاكساً وهو يقول:

- طب قومي بقى ظبطي الحمام بسرعة عشان الفجر قرب.

قفزت "سلوى" مسرعة لترتدي قميص نومها وهي تتجه إلى باب الغرفة قائلة:

- حالاً تكون كل حاجة جاهزة، بس أنت ابقى ادعيلي.

(٧)

كانت شجار "سلوى" و"ميرفت" حديث المنطقة لعدة أيام، تربصت "ميرفت" بـ"سلوى" أثناء عودتها وانقضت عليها وهي تتهمها بمشاغلة زوجها ومحاولة استمالته، لم تفلح محاولات نساء الشارع في تخليصها من بين يدي "سلوى" التي علا صوتها بالسباب لها ولزوجها ولكل من تسول له نفسه أن يتصدى لها أو يعترض طريقها ولو بكلمة، حتى "إلهام" نفسها لم تستطع السيطرة عليها إلا بعد أن كادت "ميرفت" تفقد وعيها بين يديها.

لم يظهر "أشرف" أثناء الشجار ولم يعرف أحد مكانه، لكن "سلوى" بعثته رسالة على الملأ مع زوجته:

- قولي لجوزك إن "سلوى" أرجل منك، وإن كان هو خاف لحسن أفضحه وأقول على اللي عمله فسَبق واشتكالك، فأنا يا حبيبتي مبيهمنيش، ويوم ما يعجبني راجل أنا اللي هروح وأقوله، بس الأول ألاقي في حتتكم دي رجالة.

صعدت "ميرفت" إلى شقتها بعد أن تمزقت ملابسها وسالت الدماء من خدوش وجهها، في حين تجمعت حولها النسوة يهدأن من روعها ويوغرن صدرها أكثر ضد "سلوى" آملين في التخلص منها في أسرع وقت ممكن. منهن من أوحت إليها أن "سلوى" معروف عنها أنها "بجحة ومش هتتكسف أنها تشاغل راجل ولا تاخده من على مراته عشان مزاجها"، بينما أشارت أخرى إلى أنها "شر ونجاسة لازم نبعدهم عن الحتة"، ورأت أخرى أن "الرجالة معذورة من اللي بتعمله في روحها، مبتشوفيش عبايتها ولا قصتها ولا مشيتها، والراجل برضه راجل ومبيقدرش يملك نفسه". كانت كل منهن قد وجدت في ما حدث مع "ميرفت" الذريعة المناسبة التي يجب التمسك بها بمنتهى القوة والعنف إن لزم الأمر لإجلاء "سلوى" عن المنطقة كي ينعم الجميع بالسلام، فاجتمعت النسوة على ضرورة التحدث إلى كبيري المنطقة والتضامن ضدها حتى ترحل ويعود إليهن الإحساس بالأمان.

(٨)

تجمع الرجال أمام المسجد عقب انتهاء صلاة الفجر، خرج الإمام فأشار إليه الرجال بأنهم كانوا في انتظاره. كان الإمام في بداية عقده الرابع، فقيهاً، ملتزماً، ذا خلق، وفوق كل ذلك حلو اللسان، مما جعلهم يجمعون على إيفاده للحديث إلى "سلوى" لترك المنطقة بالحسنى علها تستمع إليه ويكفي الله المؤمنين شر القتال.

كان النهار قد انتصف عندما طرق الإمام بابها، فتحت الباب وهي تتراجع متعجبة لقدومه، تمالكت نفسها وهي تدعوه إلى الدخول، جلس على الكنبة الوحيدة بالصالة وهو يتنحنح قائلاً:

- بصي- يا أخت "سلوى" أنا جاي شايلك رسالة وإن شاء الله تسمعيني كويس وتحكمي عقلك ومتخليش شيطانك يركبك ويعميكي.

نظرت إليه وهي تحاول أن تخمن ما يحمله لها من أخبار، فتابع هو قائلاً:

- الجماعة هنا في المنطقة اجتمعوا واتناقشوا في أمركم وقرروا أنهم مش عايزنكم هنا معاهم عشان حاجات كتير ملناش إننا نخوض فيها، بس هما بيطلبوا منكم تشوفولكم مكان تاني في منطقة تانية وربنا إن شاء الله يفتحها في وشكم ويغنيكم بالحلال.

انتفضت "سلوى" واقفة وهي تضع يدها في خصرها صائحة:

- وحياة أمك؟

تنحنح الإمام في حرج وهو يقول:

- أنا مقدر غضبك بس أنا قولتلك متخليش شيطانك يغلبك واستغفري الله.

تقدمت منه "سلوى" وهي تشير إليه بيديها في تحد قائلة:

- أنت هتستعبط يا .. "شيخ بدر"، بص بقى يا حبيبي، كلمتين ملهمش تالت، اللى مش عاجبه جيرتي يرحل، ولو أنا اللي مشيت جبرانية يبقى عليا وعلى أعدائي، يعني قبل ما أسيب الحتة لازم كل واحد وواحدة يكون عرف تمامه وكل اللي عامل مغمض أنا بقى هفتحله عنيه غصب .. فهمت يا .. "بدر"؟

نهض "الشيخ بدر" من مجلسه ناظراً إلى الأرض وهو يقول:

- على العموم يا أخت "سلوى" قدامك أسبوع تفكري وتقرري وإن شاء الله ربنا يهديكي للي فيه الصالح .. الباب بعد إذنك .. السلام عليكم.

جلست "سلوى" تفكر فيما يجب أن تفعله، لقد تكاتف عليها الجميع، حتى هو، كانت تعلم في قرارة نفسها أنه أول من سيتبرأ منها عندما تحين الساعة، لكنها لم تتوقع منه أن يكون بمثل هذا البرود وذلك الإتقان، لكنها أيضاً لن تتركهم وترحل هكذا، لن تجعلهم

يتطهرون بتقديمها وأختها قرباناً على مذبح خطاياهم، إن كان ولابد، فليُهدم المعبد على رؤوس كل الخطاءين، إن همها الوحيد الآن هو خوفها على "إلهام"، فهي ليست مثلها، ولن تقدر على شن حرب ضد الجميع أو حتى الدفاع عن نفسها، فلتقصيها عن ساحة المعركة إذن حتى يتبين لمن النصر المبين.

(٩)

لم تشعر "إلهام" بالاطمئنان لذلك الطلب المفاجيء، فبالإضافة إلى أنها لم تفترق عن "سلوى" ليلة واحدة منذ أن رحلت أمهما، لايزال عقلها يرفض فكرة أن تسافر لزيارة خالتها التي لم تقوما بزيارتها منذ خمس سنوات على الأقل بحجة الاطمئنان عليها وتفقد أحوالها، وأن "سلوى" ستنتهز هذه الفرصة لإعادة طلاء المنزل الذي صار يشبه "الخرابة" - على حد تعبيرها - واللحاق بها بعد أسبوع على الأكثر. كان قلبها يخبرها أن هناك أمراً ما، وأنه أمر ليس بالجيد، لكن "سلوى" طمأنتها وهدأت من روعها وهي تطلب منها أن تكف عن القلق وأنه "كلها كام يوم وهتلاقيني في ديلك .. بس أنتي خلي بالك من نفسك".

(١٠)

انقضى الأسبوع سريعاً، كانت "إلهام" قد سافرت منذ يومين لكنها لم تكف عن الاتصال بـ"سلوى" للاطمئنان عليها، فقد كان قلبها لايزال لا يستبشر خيراً، وكانت "سلوى" على عادتها في الخروج والدخول وكأن شيئاً لم يكن حتى لا تظهر خوفاً أو تراجعاً يقوي من موقفهم أمامها، تغير الجميع نحوها في أيام معدودات، أصبح عم "معاطي" ينظر إلى الأرض كلما رآها أو أحس بها قادمة، ويدخل "أشرف" أول مكان يقابله حين تقع عيناه عليها، لم تلق عليها امرأة السلام، ولم ترسل إحداهن في طلبها، حتى الرجال تحاشوها،

وصار من الواضح أن هناك حالة من التحفز والتوتر في نفوس الجميع وكأنهم في انتظار يوم معلوم.

(١١)

بعد انتهاء صلاة العشاء، تجمع الرجال أمام المسجد وقرروا أن ينتظروا "الشيخ بدر" حتى يذهب إلى منزل "سلوى" ويأتيهم بردها النهائي. طرق "الشيخ" بابها، ففتحت وهي تسد الباب بجسدها قائلة:

- خير يا .. "شيخ بدر"؟

نظر إلى الأرض وهو يقول بصوت خفيض:

- كنت عايز أتكلم معاك كلمتين يا أخت "سلوى".

نظرت إلى خجله المصطنع وهي تقول في تهكم:

- بس أنا لوحدي ومينفعش تدخل يا شيخنا .. ولا أنت مبتخفش من الشيطان؟

بنفس النبرة الهادئة أجابها:

- إن شاء الله مفيش بينا شياطين.

أفسحت له طريقاً للدخول، اتخذ نفس مجلسه السابق، أغلقت الباب وجلست في مواجهته، خفض صوته قدر ما يستطيع وهو يقول:

- وبعدين معاكي يا "سلوى" في العند ده؟ أنا خايف عليكي، هما خلاص اللي في دماغهم هيعملوه هيعملوه، النسوان خايفة منك، والرجالة محروقين عشان مش طايلين منك حاجة، وأنا الوحيد اللي حاميكي منهم لغاية دلوقتي، سيبلهم الحتة

وعزلي في أي مكان، يعني هيا الحتة فيها إيه الواحد يبكي عليه، وإن كان عليا أنا هجيلك إنشاالله تكوني في آخر الدنيا، أنا مش هسيبك.

تحولت ملامحها إلى الغضب وهي تقول:

- إياكش تكون فاكرني مش عايزة أسيب الحتة عشانك؟ لا يا عينيا، أنت خلاص بقيت زيك زي أقل واحد فيهم ويمكن أقل، بس مش "سلوى" اللي تمشي مغصوبة، ولو حصل يبقى زي ما قولتلك.

واقتربت منه حتى لفحت أنفاسها وجهه وهي تقول:

- عليا .. وعلى أعدائي .. وأنتم كلكم دلوقتي بقيتوا أعدائي .. كلكم .. فهمت يا "بدر" ولا أفهمك أكتر ؟

رفع حاجبه وهو يقترب منها أكثر قائلاً:

- يعني ده آخر كلام يا .. "أخت سلوى"؟

نهضت واقفة وهي تقول:

- ومفيش كلام غيره يا قلب أختك.

(١٢)

خرج "الشيخ بدر" من عندها ليجتمع بالناس أمام المسجد فيخطب فيهم قائلاً:

- أيها الأخوة .. إن الله يأمركم أن تتعاونوا على البر والتقوى، وإن أردتم تقويم المخطىء منكم فباللين والمعروف، لكنه أيضاً أمركم بنصرة دينه ومحاربة من لا يرجون له وقاراً، لقد اخترتموني للحديث إلى تلك المرأة بشأن ما تأتيه من أفعال، فما كان منها إلا أن

أهانتني، وسبتني، بل وسبت ربها ولعنته، وأدعت أن جسدها ملكية خالصة لها تفعل به ما تشاء، وتبيعه لمن ترغب.

علت همهمات الجمع الغاضبة وتداخلت الأصوات التي تطالب بالقصاص منها، أشار إليهم الإمام بيده ليصمتوا وتابع حديثه قائلاً:

- لقد وضعتني بفعلتها في موضع مساءلة أمام الله، لماذا لم أنتصر لدينه؟ ولماذا لم أقتص ممن تطاول على عظمته جل جلاله؟ كما وضعتكم أنتم أيضاً في موضع مسئولية ستحاسبون عليها حين يسألكم الله لماذا تركتموها تنشر الفسق وتشيع الفاحشة بينكم؟

علت الأصوات وهي تجتمع على ضرورة التخلص منها وتطهير المنطقة من رجس أفعالها حتى يرضى الله عنهم، أسكتهم "الشيخ بدر" بإشارة من يده مرة أخرى وهو يقول:

- إن عليها حدين، حد لإهانتها ذات الله العلية، وحد الرجم حتى الموت لما نشرته من موبقات وما مارسته من بغاء، فنحن لن نتركها ترحل لنبلي بها قوماً آخرين، وإن الحد الأول لي، أما الثاني فلكم، ولندعو الله أن يجعل فيما نفعله خيراً لنا ورحمة لها.

(١٣)

عند باب المنزل الخارجي أشار إليهم بالانتظار، صعد درجات السلم في تأن وطرق الباب، فتحت "سلوى" وهي تتذمر قائلة:

- في إيه تاني؟

دفعها "الشيخ بدر" لتسقط على ظهرها، رفع جلبابه وهو يعتليها ويجلس فوق صدرها مثبتاً يديها بركبتيه على الأرض، أخرج سكينه وهو ينظر إليها في ثبات، حاولت أن تسقطه أرضاً لكنها لم تفلح، أطلقت صرخاتها المرعوبة، أصاغ الجمع خارج المنزل السمع

دون أن يتقدم أحد لينقذها من بين يديه، توقفت صرخاتها فجأة، لم يعد أحد يسمع صوتها، ساد الصمت لحظات قبل أن يخرج عليهم "الشيخ بدر" ويداه وجلبابه مخضبين بالدماء، رفع يده في وجوههم وهو يهتف في صوت جهوري:

- لقد أتممت ما أوكله إلي الله من عمل .. وقطعت لسان الفاجرة الذي سبت به الله والأمر الآن متروك لكم أيها المؤمنون.

انتحى "الشيخ" جانباً بينما تدافعت الجموع إلى منزل "سلوى" مكبرين كي يقيموا عليها حد الله.

حق مشاع

"فسلام عليك ..
يوم التقينا .. ويوم افترقنا.. ويوم لا تنفع الذكرى"

(1)

لايزال البعد في أوله، لم تمض سوي لحظات، دقائق، ربما ساعات، منذ أن افترقنا بكلمات أرسلتها من بعد، لم تكن حاضراً أمامي، لم أتمعن في ملامحك، لم ألمح دموعاً في عينيك، لم أرى ارتعاشة شفتيك وأنت تعلنني النهاية، ولم يلمس قلبي أسفك الذي تردد كثيراً بين سطورك.

هل كنت تشعر بالفعل بتلك الغصة؟ وذلك الندم الذي حاولت أن تغلف به حروف وداعك؟ هل كنت تحاول أن تسيطر على ارتجافة يدك وأنت تضع حداً لمأساتنا الجميلة معاً؟ وكم مرة سطرت كلماتك ومحوتها حين وجدتها لا تحمل حرارة مشاعرك وعمق ألمك للفراق؟ هل استنطقت اللغة بكلمات فريدة لنهايتنا؟ أم استعنت بكلمات أنصفت كل من سبقونا بالنهايات؟ أم أنك كنت تخط نهايتنا وأنت تسحب أنفاساً عميقة من لفافتك فتتخلص مع دخانها من بقايا حكاية أثقلت صدرك؟ تحاول أن تكتب كلمات تواسيني كي تهرب من عبء ذنب قد تشعر به يوماً إن لم أستطع بعدك مواجهة الحياة؟ تخبرني إنك تحمل معي وزر البداية، تشاركني الإثم، كي تستمتع بنصيبك من ألم الخسارة ووجع النهاية؟ فحتى الألم له لذة تغرينا بالتجربة وارتشافه حتى الثمالة..!

(٢)

لاتزال ذاكرتي تعمل بسرعة محمومة لاستعادة كل تفاصيل قصتنا القصيرة .. جداً، سلام، حديث عابر، وقليل من النظرات والبسمات، وليتك تعلم ماذا فعل بقلبي يومها ذاك السلام، كان سلامك لعنتي، وطوق نجاتي، ارتاحت يدي لثوان بين أصابعك،

ارتجفت، انتفض عقلي وخطوط عريضة لمستقبلنا تمر أمامي، رأيتك تطعن قلبي حباً، وتجهز على ما تبقي فيَ بالوداع.

أتيتني حاملاً بين كفيك كل الوعود الأحلام التي لم أحلم بها، ولم أنتظرها، فصارت مداخلي مشرعة لك وحدك، كل الطرقات تنتظرك، وأقداري تتحالف معك عليَ، تسللت داخلي، اخترت موضع القلب، حطيت رحالك واستكنت، وأفقت لأجدك قد أصبحت نصف روحي، نصف قلبي، وكل أمانيَ المتعبات، لم أملك أن أوصد أبواب القلب أمام جيوش حنانك، فأسلمت، واستسلمت، ووسمتك أول من أذاب جليد مقاومتي، وكشف عن ضعف مشاعري. وانسحب الليل حاملاً معه قصتنا، أطل صباح مشرق، ألقى بشمسه على حدود خلوتنا، فتحت عيني لأجدك على أعتاب القلب تستعد للرحيل، لم أتوسل، لم أبك، لم أسألك الرجوع، لم أندم، لم أعتب، فقط، تأملتك لآخر مرة أراك فيها حبيباً، اكتفيت منك بلمسة يد، ولحظة عشتها، كنت فيها مُخلصي وملاكي .. !

(٣)

أشعر الآن وكأنني أكتب عن بشر غيرنا، أحكي قصة سمعتها، لم تعد كلماتها تثير في ذلك الحزن القابض، ولا تترك بقلبي تلك الغصة التي لازمتني منذ أن بدأت الكتابة، تراني فرغت منك؟ لست أدري. لابد أنك تدرك الآن لماذا حرصت أن أكتب عنك، لأنني أحببتك، وأتوق للتخلص منك، أن أضعك على أوراقي، لتترك قلبي مرغماً، وتسكن الحروف والنقاط، أفرغ حكايتنا من الإحساس، أحولها إلى كلمات، أنكر عليها وحدانيتها، أجعلها ملكية عامة، حق مشاع، فتفقد غموضها، لذة سريتها، وتصبح في النهاية مجرد كلمات.

أخط كلمة النهاية، أضع قلمي جانباً، أتنهد في ارتياح، أرتب أوراق حكايتنا، تتصاعد شرارات عشقنا الأخيرة، تختفي الكلمات في سرعة وتذوب المشاعر وتنطفىء الأحلام، تتحول أيامنا المعدودة إلى رماد، لا يتبقى من الحكاية سوى ذكرى لا تزال عالقة بقلبي، لكنها حتماً ستتوارى بمرور الأيام. أعود أدراجي، أسير وحدي في دروب حياتي غير الممهدة للحب، أحتضن نفسي، أحكم إغلاق صدري على القلب المستكين، وأبعثك السلام، ويوماً ما قد أراك دون أشعر لك حنيناً أو رغبة واشتياق، أراك كأول مرة اجتمعنا، بلا أحلام، بلا وعود، فقط، سلام، حديث عابر، وقليل من النظرات والبسمات .. !

قصة شِتا

(1)

يخترق تيار الهواء البارد صفحات الجرائد المطوية التي تمثل خط الدفاع الثاني خلف ضلفة النافذة المكسورة، تندفع طلقاته عابرة كل الحواجز لتحتل مساحة الحجرة شبه العارية، يأن جسدها الضئيل تحت وطأة الهجوم الشرس فتلف الجسد النحيل بالغطاء البالي متعدد الثقوب. فراشها عبارة عن ملاءة قديمة تغطي مستطيلاً من الكرتون المتآكل كان صندوق ثلاجة في الأغلب لكنه يتسع لجسدها الصغير للتمدد فوقه بل ويعطيها مساحة للتقلب أحياناً، ومنذ زمن اعتادت أن تتوسد يديها عند النوم. تحاول الانكماش على نفسها أكثر لتقلل المساحات المفتوحة أمام الغزو، تصرخ عظامها ألماً حين تحاول تحريكها، تطلق آهة مكتومة وهي تجبر نفسها على الحركة حتى لا يتملك منها البرد فتتجمد مكانها.

(٢)

تدور حول نفسها فاتحة ذراعيها تستقبل عطايا السماء، يشكل ذيل جلبابها الصغير دوامات من فرح طفولي يلون الدنيا بلون ورود مطبوعة على قماش الجلباب، تمتزج الألوان كلما أسرعت في دورانها، فيتحول الجلباب إلى تنورة مثل تلك التي رأتها في مولد القرية. كان الرجل يرتدي جلبابه الأبيض الناصع وفوقه تنورة واسعة بها كل الألوان الزاهية التي رأتها من قبل والتي لم ترها في قماش أرديتها القليلة، يدور الرجل في سرعة حتى يصيبها الدوار من طول متابعته بعينيها البريئتين، تصفق بيديها في فرح، تتعجب لعمامته البيضاء التي لا تتزحزح من مكانها على رأسه، تحاول أن تميز ما رأته من ألوان قبل أن يبدأ الرجل في دورانه، لكن سرعته تغلب محاولاتها الطفولية للانتباه والتركيز. ترتطم قطرات المطر بوجهها النضر، تناديها الأم بصوت جهوري، تطلب منها الدخول إلى المنزل حتى لا تبلل ملابسها ويصيبها الإعياء، ترفض الامتثال بطريقة غير معلنة، تتجاهل النداء، تنطلق نحو أعواد الذرة في الحقل مترامي الأطراف، تتمايل

الأعواد أمامها تبعاً لاتجاه الرياح، تخطو إلى الداخل في وجل، لكنها تعود أدراجها في سرعة وتهرول صوب البيت حين تتذكر تحذيرات الأم حول من يسكنون الحقول.

يتوقف فيض السماء، يصفو الجو، تجلس على عتبة دارها تنظر إلى الأرض المشبعة بالماء، تزكم أنفها رائحة المطر، للأرض دوماً رائحة لا يمكن أن يصفها إنسان، ورحيق لا ينتشر إلا بعد سقوط المطر. سألت أباها يوماً عن سر ذلك الرحيق، أجابها أن الرائحة كامنة في الأرض وتخرجها المياه، لكن عقلها لم يقتنع ولم يكتف بتلك الإجابات، لماذا ترتبط الرائحة بالمطر وحده؟ لماذا لا تشمها أيام ري الأرض؟ أو حين تسكب أمها المياه بعد الغسيل؟ لم يجد الأب لسؤالها جواباً، هز رأسه وتشاغل عن فضولها الذكي بتركيب يد خشبية جديدة لفأسه وهو يبتسم لنفسه في سعادة. إنها ابنته الوحيدة، أصابه الحزن يوم مولدها، كان يريد ولداً يحمل اسمه وليس فقره، لكنه صبر على قضاء الله، توجه إلى الرب بدعائه أن يهبه الولد، لكن الله لم يزده حظاً في البنين أو المال.

(٣)

يرتفع صوت آذان الفجر معلناً احتضار ليلة أخرى، تردد الآذان بقلب خاشع وهي تدعو الله أن يجعل أعمالها خيراً، وألا يتخلى عنها الآن بعد أن ألهمها الصبر طيلة هذه الأعوام. تقوم على مهل، تتوضأ من مائها القليل، تتربع على الأرض وتقيم الصلاة، فقد صارت تصلي جالسة حين لم تعد قدماها الهزيلتان تقويان على حملها، ولم يعد ظهرها الضعيف يقوى على الانحناء. تنهي صلاتها، تتلو الأذكار، تتوجه إلى الله بالدعاء، تدمع عيناها، يرتعش صوتها، تحمد الله على ما هي فيه، تعود للتمدد في فراشها شاخصة إلى السقف بعروقه الخشبية وبعض القشور التي تنم عن طلاء قديم اختفى بمرور الأيام، وبعض القطع الخشبية الميتة التي تتساقط من وقت لآخر معلنة عن اكتفائها وانسحابها من الحياة. لا أحد يستطيع اختراق ذهنها أو معرفة ما تفكر فيه في لحظات سكونها هذه، تختلط ذكرياتها وتتداخل مشاعرها، تقفز من أيام صباها إلى سنوات زواجها،

وتشتاق إلى ولدها الذي لم تعد تذكر ملامحه إلا من صورة قديمة بهت لونها وتآكلت أطرافها.

(٤)

كبرت سريعاً فلم تشعر مرور الأيام، لم تدرك ذلك إلا عندما بدأت تطاردها نظرات شباب القرية في الذهاب والإياب، لم تعد طفلة تلهو وتلعب متى تشاء، أصبح لخروجها أسباب وحساب، انتقص دوران جسدها ومعالم أنوثتها من حريتها، فخطواتها معدودة، كلامها محسوب، وأخطاؤها تستوجب العقاب. وبقدر ما شعرت بالظلم لمنعها عن رفيقات الطفولة وما عشقته في شوارع القرية من حركة وزحام، بقدر ما شعرت بالزهو لإعلان صريح عن فتنتها وما حباها به الله من جمال. كانت تنتظر يوم خروجها مع أمها لترى نظرات الشوق في عيون من يفتقدون طلتها ويحلمون بها رفيقة وشريكة في الحياة، لم تكن تهتم كثيراً لكلمات تُلقى عرضاً، لكنها وحدها مقصودة بها، كلمات تمتدح جمال الدنيا، لون الورد، ورائحة البحر، فقط نظراته كانت تلقى منها قبولاً وتترك فيها أثراً لا يضاهيه نور الشمس ولا عرض السماء.

كان أحد أبناء قريتها، يكبرها بعدة أعوام، لا يزيد عن الآخرين شيئاً من مال أو جمال، لكن قلبها مال إليه حتى دون أن تتبادل معه الكلمات، كانت نظراتهما تلتقي فتشعر بقلبها ينتفض، تضطرب، تتوه نظراتها، تكاد تتعثر في خطواتها وهي تعبر برك المياه الموحلة التي خلفتها أمطار الشتاء فتستند على ذراع أمها، تحاول أن تتوارى عن عينيه اللتين يملأهما الشغف فيرصدانها في كل تحركاتها جيئة وذهاب، وشيئاً فشيئاً بات ما يدور بينهما في صمت واضحاً للعيان، تحدثت القرية في همس عن نظراتهما، تحسر البعض على ضياعها منه، وحاول آخرون الانتقام بإطلاق الشائعات.

أحكمت الأم إغلاق الباب، جلست بجوارها، حدثتها حديث النساء، أخبرتها أن الفقراء لا يملكون إلا الشرف وبدونه هم عرايا بلا غطاء، وعفتها ليست في جسدها فقط، بل عفة روحها وقلبها الذي يجب أن تحفظه لمن سيملكه بحق الإله، أخبرتها أن كثيرات قبلها كن عفيفات الجسد لكنهن ذبلن وحيدات لما فرطن فيه من نظرات وكلمات، وأن الرجل الحق لا يضع أنثاه موضع شك أو شبهات، من يريدها سيطرق بابها، لن يتربص بها في الشوارع والطرقات، وإن لم يكن يملك الشجاعة، فهو لا يستحق منها نبضة قلب أو انشغال ولو للحظات، شددت عليها الأم ألا تفرط في كنزها الوحيد، سُمعتها، وألا تسمح لأي كان أن يأخذ ما ليس بحقه بدعوى الحب أو الإعجاب، وأنهت الأم حديثها بدعواتها لها بالستر و"ابن الحلال".

تركتها الأم وحدها حتى تمعن التفكير في كلماتها لتستوعب الدرس وتدرك كم ما يحيط بها من أخطار، فهي أنثى، والأنثى كالثوب ناصع البياض، لا تختفي فيه البقع ولا تتوه عن أعين الناظرين اللطخات. ملأها الحزن لأنها ستحرم من نظراته التي كانت لها زاداً في ساعات وحدتها فبنت منها قصور أحلام وآمال، لن تحمل النسمات رسائل روحه الهائمة حولها فتصبها في مسامعها نهراً متدفقاً من الألحان والنغمات، ولن تشعر وجوده يرافقها ويحرسها ويبارك من حولها الخطوات.

(٥)

تهب الرياح الباردة في قوة، تلملم غطاءها وتلف به الجسد الضعيف في استسلام وخضوع لجبروت الشتاء. صحيح أن الشتاء عذاب للفقراء، يزيد من معاناتهم وإحساسهم بما لا يملكون، لكنها تكره الشتاء لأسباب أخرى، فقد أحبته في الشتاء، وتزوجته شتاءاً، ورحل عنها ذات شتاء، وأنجبت وليدها في أيام البرد، وفقدته أيضاً في ليال البرد، مال الشتاء ومالها؟ ولماذا انتظرها خلف كل باب في حياتها ليهبها فرحة ثم يسلبها إياها؟

تعتدل في فراشها، تمد أصابعها تحت الملاءة فتخرج صفحة جريدة مطوية بعناية تغير لونها وانمحت منها الكلمات، تفضها بحذر وتمسك بالصورة التي تحفظها فيها، تقربها من عينيها إلى أقصى درجة ممكنة حتى تستطيع أن ترى ما بها، تغير لون الصورة من الأبيض والأسود إلى الأصفر ولون آخر لا تعرفه. تسيل دمعة من عينيها الغائمتين وهي تعجز عن رؤية ملامحه التي أبى الزمن أن يحفظها لها، تقبل الصورة بشفتين تزيد شقوقها عن شقوق أرض قفر لم يصبها المطر، تحتضنها في قوة قبل أن تعيدها إلى مكانها، تمسح عينيها بكُم جلبابها وتعود للتمدد من جديد.

(٦)

نادى عليها الأب، خرجت مسرعة من حجرتها لتجده متربعاً على حصيرة وسط الدار والأم جالسة بجواره وقد أسندت رأسها إلى الحائط وعلى شفتيها ابتسامة. طلب منها الجلوس، جلست متوجسة وهي تشعر بخوف مبهم مما يدور، أخبرها صراحة أن هناك من تقدم لطلب يدها وأنه والأم قد ناقشا الأمر ووجداه مناسباً لها، فأخلاقه حميدة، كما أنه مجتهد ويستطيع إعالتها.

أسقط في يدها، لم ترد، نظرت إلى الأرض، صرخ قلبها في يأس مكتوم، هرولت إلى حجرتها، ظنها أبوها خجلة مما ألقاه على مسامعها منذ لحظات، ارتمى جسدها المنتفض على الفراش، كتمت صوت بكائها المر في وسادتها، فتحت أمها الباب وتسللت إلى الداخل، ربتت على ظهرها وهي تسألها:

- بتعيطي ليه؟

هل تخاطر وتخبرها بما تحمله له من مشاعر، أم تصمت وترضى بتلك الزيجة دون أن تفضح سرها.

مسدت الأم شعرها وهي تقول:

- بتعيطي عشان "نصار"؟

كاد قلبها يتوقف حين سمعت اسمه، جمدت مكانها، فرغم تصريح أمها بمعرفتها بما يعتمل داخلها، إلا أنها لا تستطيع أن تناقش معها هذا الموضوع، فقد تربت على ذلك، فهناك ما لا يجب أن يقال، وهناك العديد من الأمور التي ينبغي لها أن تمرر في صمت. حثتها أمها على الكلام، لم تجرؤ على النطق، تركت لدموعها العنان، احتضنتها أمها، مسحت دموعها وهي تقول:

- طب ولو قولتلك إن "نصار" هو اللي طلبك؟

اتسعت ابتسامتها ودموعها تنهمر في غزارة، احتضنت أمها في قوة، أطلقت زفرة حارة تخلصت بها من كل مخاوفها وتوترها، قبلتها أمها في حنان قبل أن تتخذ طريقها إلى الخارج لتقوم بما ينتظرها من مهام. مكثت وحدها تعيد على نفسها ما سمعته من الأم من كلمات، لم تصدق نفسها، لم تكن تتخيل أن هذا اليوم سيأتي، لم تتصور أن "نصار" يمتلك تلك الشجاعة التي أخبرتها عنها أمها من قبل، لكنه بدد شكوكها فراحت ظنونها أدراج الرياح.

(٧)

ينتفض جسدها انتفاضات متقطعة من لسعات البرد العاتية، لكن قلبها تزداد حرارته بدفء الذكريات، هنا عاشت أحلامها، وهنا راح منها كل عزيز وغال، شهدت هذه الجدران ساعات فرحها، وسنوات بؤس وحدتها، أخفاها السقف عن العيون، ظل يراقبها كحارس أوكلتها إليه الدنيا، لكنه لم يواسيها مرة، ولم يعدها أن تصير أيامها أفضل مما كان. يعلو صفير الرياح في الخارج، يتردد في خواء حجرتها، يخيل إليها أن الجدران

تتراقص على إيقاع الصفير المحموم، شتاء هذا العام قارس، رياحه عواصف، أمطاره سيول، وعذابه لا يحتمل.

(٨)

احمر وجهها خجلاً وتقطعت أنفاسها وهي تخبره عما يتحرك في أحشائها، ألجمته الفرحة، وضع يده على بطنها يتحسسه وكأنه لا يصدق نفسه، أخبرته أنها كانت تشعر بتوعك بسيط منذ عدة أيام، وعندما شكت إلى أمها اصطحبتها إلى "نعيمة" داية القرية التي زفت إليها بشرى الحمل وطلبت الحلاوة. باتا ليلتها يحلمان بالمولود القادم، رسما خطط مستقبله بإحكام، وكان أولها أن يتركا تلك القرية المنسية في أول فرصة ممكنة وينزحا إلى العالم الكبير.

استقر بهما المقام بأحد أحياء القاهرة الفقيرة، قررا أن يسكنا حجرة صغيرة بشكل مؤقت حتى ينتظم في عمل يدر عليهما رزقاً وفيراً يمكنهما من الحياة الكريمة ورعاية ذلك الطفل الذي يحبو أمامها مبتسماً متطلعاً لما تحمله له الأقدار. مرت الأيام، صارت حياتهما أكثر صعوبة، اكتشفا أن أحلامهما لم تكن سهلة المنال، فلم يكونا وحدهما من يبتغون الرزق في تلك المدينة القاهرة، آلاف غيرهما هجروا دفء أماكنهم من أجلها، آلاف قبلهم ابتلعتهم شوارعها ولم ترحم حاجتهم أو تشفق على ما عقدوها عليها من آمال. لم يكن لـ"نصار" حرفة سوى الزراعة، لكن حرفته لم تلق رواجاً في بلد لا حقل به ولا زروع، لم يترك باباً إلا طرقه، عمل بكل شيء، لكنه لم يستطع رغم ذلك إلا أن يكفل أسرته الصغيرة يوماً بيوم، فلم يتوفر لهما ما يدخرانه أو يجعلان منه ضمانة ضد تقلبات الأيام.

نطق الطفل أول كلماته، سار أولى خطواته، ولم يتغير حالهما كثيراً عما كان، ضاع حلمهما في إلحاقه بالمدرسة فانحنيا للحياة وغيرا مسار الحلم حين لم يعد بالإمكان، وقررا أن يعلماه حرفة تصبح له سنداً ويترقى فيها بمرور الأيام. أصبح الطفل صبياً، ثم لم يلبث أن

صار شاباً وسيماً ترك العمل أثره على جسده الذي بات ممشوقاً بارز العضلات، لم تسعها الدنيا وهي تراه رجلاً قد أوشك أخيراً على اقتناص أحد أحلامها قبل فوات الأوان.

كانت تقضي جل وقتها مستغرقة في أحلام يقظتها، تراه وقد صار صاحب عمل، ينعم بصحة ومال، دعت الله من أعماق قلبها أن يهبه زوجة تكون له كما كانت هي لأبيه، وذرية تكون له في الحياة عوناً وافتخاراً، ولم يخيب هو ظنها يوماً، كان باراً بها، دمث الخلق، يحبه الزملاء والجيران، لم يغضبها مرة، ولم تأتها منه شكوى.

أفاقت من أحلامها على لطمة قوية من الحياة، جلست تنظر إلى "نصار" الذي تملك منه داء لا تعرفه، هزل جسده، وهن، أصبح غير قادر على الحركة، يتمزق ألماً ليل نهار، يبكي دموعاً لم ترها منه من قبل، ويتوسل إلى الله أن يرحمه ولو بالموت، كانت هذه الكلمة قد غابت عن عالمها منذ أن فقدت أبويها، الموت، كم تخاف تلك الكلمة وما تحمله حروفها من فقد وحرمان.

رحل "نصار" والبرق يضرب عرض السماء، غطى صوت الرعد على صوت صرخاتها الملتاعة، ولولت، لطمت خديها، عاتبت ربها كثيراً عتاب الأحباب، لكنها لم تستطع أن تسامح أقدارها هذه المرة، فقد حرمتها من نصف حياتها ولم يتبق لها سوى نصف واحد أصبحت لا تأمن عليه من شر الأيام.

(٩)

تزفر في قوة وهي تستغفر الله لما استعادته من ذكرى حنقها وسخطها على الأقدار في تلك اللحظات، إن لله حكمة وما علينا إلا أن نرضى، فالرضا فضيلة الفقراء، والصبر حيلة من لا حيلة له. تبحث في أفكارها المعدودة عن شيء يبعدها عن ما يدور بخلدها،

تحاول الهرب من ذلك الحزن الذي لم تعد تقدر عليه، تردد أدعية تحفظها منذ الصغر، فتدعو لأحبائها بالرحمة والمغفرة، ولنفسها بالصبر والرضا.

(١٠)

توالت الطرقات على الباب المتهالك، قابلتها النسوة نائحات، ولولن، لطمن الخدود من أجلها، شقت ملابسها، سترنها، قيدن حركتها حتى لا تأتي بما يؤذيها، نظرت النسوة إلى بعضهن البعض، رثين لحالها، تعجبن لتلك الأقدار التي اختطفت زوجها وابنها في أقل من ثلاثة أعوام كلاً في شتاء، طمعت الحياة في كل ما لديها، ولم تترك لها إلا زاداً من الألم يكفيها حتى الممات. ضاعت كل أمانيها، ولم يعد لها بعدهم رغبة في الحياة، لكن الله أطال في عمرها وكأنه يطهرها بحزنها من ذنب لا تعلمه وخطيئة لا تدري متى ارتكبتها، اعتزلت الدنيا، عاشت على الذكرى، ولم تعد تلقي بالاً للأيام، فماذا عساه قد يحدث لها أكثر مما صار؟

ينطلق سيل دموعها، يفيض عبر أخاديد وجنتيها، تستسلم له، لا تعتزم المقاومة، ولا تريد أن تقاوم بعد الآن، تنتحب في شدة عل دموعها تفك كرب نفسها، تشاركها الدنيا نحيبها، يتسرب الماء من شقوق السقف، يصنع بركاً صغيرة تتسع في سرعة. يزداد تدفق الماء، تتمايل الجدران في تخاذل، تتساقط من حولها الأشياء، تسبح شظايا أحزان مزقتها في عدم نهائي، تحكم شد الغطاء على جسدها النحيل فتغطي وجهها، تغلق عينيها، تستودع الله ذكرياتها، وتقرأ أحباءها السلام.

قضية أمن دولة

(1)

أطفأت سيجارتها في عصبية قبل أن تخبىء المنفضة أسفل الكرسي في سرعة، ألقت بالطرحة على رأسها العاري، اتجهت إلى الباب في توتر وهي تطرد رائحة الدخان بيديها في قوة، أخذت نفساً عميقاً، تلفتت حولها ثم فتحت الباب دون أن ترفع سلسلة المزلاج، مد إليها محصل الكهرباء يده بالفاتورة الشهرية، التقطت الورقة من بين أصابعه، استأذنته للحظة قبل أن تعود حاملة النقود.

أغلقت الباب خلفه وهي تتنهد في ارتياح، سارت متمهلة حتى عادت إلى كرسيها، ألقت بجسدها فغاصت في الكرسي حتى كادت تختفي فيه، ظلت ساهمة لوهلة ثم مالبثت أن بدأت ابتسامة في الارتسام على وجهها أخذت تتسع تدريجياً حتى تحولت إلى ضحكة كبيرة، ارتج جسدها في عنف وانسابت دموعها وضحكاتها تتوالى، مسحت عينيها وهي تتعجب من نفسها، مم تخاف؟ بل ممن تخاف؟ لقد تخطت الأربعين، مطلقة، عذراء، مات أبواها منذ زمن، لا يشاركها وحدتها سوى الوحدة، ورغم ذلك كلما دق جرس بابها يصيبها الهلع، تسرع بإخفاء آثار جرائمها، ترتب أشياءها، وتفتح بابها وصوت ضربات قلبها مسموع للجميع.

(٢)

أغلق باب الشقة في حذر وهو يتسلل إلى الداخل، أطلق نظره في أرجاء المكان، الأم تقف في المطبخ، حجرة النوم الكبيرة مواربة مطفأة الأنوار، والهدوء يسود كل الزوايا والأركان، وفجأة التقطت أذناه المدربة على التقاط أدق الأصوات صوت موسيقى تنبعث من حجرة الفتيات، تطاير الشرر من عينيه وهو يفتح الباب ليباغتهن متلبسات. كانت الإبنة الصغرى مستلقية على الفراش تردد كلمات الأغنية التي لا يدري متى حفظتها عن ظهر قلب، بينما انطلقت الكبرى تهز خصرها وتتمايل أمام المرآة في غنج ودلال، بهتت

الفتاتان لمرآه حيث وحين لم تتوقعا، أصابهما الرعب بشلل جمد كلاً منهما على حالها، جلست الأم تنتحب في الصالة وصوت صراخ بناتها يمزق نياط قلبها وحزامه العريض يأبى إلا أن يترك آثاره على كل مساحة حية من جسديهما.

(3)

عادتا من الجامعة لتجدا حجرتهما مقلوبة رأساً عى عقب، فقد قام الأب في غيابهما بحملة تفتيش مفاجئة لزنزانتهما. مجموعة من شرائط الكاسيت مخبأة بعناية أسفل حواشي الفراش، أحمر شفاه وزجاجة عطر وضعتهما إحداهما في جيب أحد ملابسها المعلقة بالدولاب، وأوراق كتبت فيها أبيات شعر وكلمات تحرض على الحب، لقد تعلمن إذن كيف يتحايلن على أنظمة أمنه ويمررن ما يشئن من ممنوعات، يبدو أنه قد تساهل معهن كثيراً فتمادين في العصيان ولابد له من اتخاذ موقف حاسم الآن.

كاد القلق يفتك بهما وهما تنتظران عقابه المميت، لكنه لم يقترب منهما، لم تمسهما يده بأذى، انتهت الإجازة الأسبوعية، تجمعت العائلة الصغيرة على الإفطار مثل كل يوم قبل أن ينطلق كل منهم في طريقه. انتهت وجبتهم القسرية، نهضت الفتاتان، قبلتا يده مرغمتين كالعادة، اتجهتا إلى باب الشقة وكل منهما تحمل أشياءها، استوقفهما بصوته الجهوري وهو يسألهما:

- إلى أين؟

نظرت كل منهما إلى الأخرى في وجل قبل أن تهمس الكبرى في خوف:

- إلى الجامعة يا أبي.

أخرج يده من تحت المنضدة وهو يلقي بملفين من الأوراق الممزقة تحت أقدامها وابتسامة تشف تملأ وجهه وهو يقول:

- لا توجد جامعة بعد اليوم، لقد سحبت أوراقكما ولم تعودا مقيدتين سوى بالمنزل.

(4)

مر أكثر من عام والحزن يخيم على المكان، لم تعد الفتيات تتكلمن، لا مزاح، ولا ابتسام، ذبلت أوراق أنوثتهن، وشارفن على الموت أحياء. وببداية العام التالي ظهر في الأفق طوق النجاة لإحداهن، تقدم ابن خالتها طالباً يدها للزواج، ترددت الأم كثيراً وتلعثمت وهي تعرض عليه الأمر، صمت الأب ولم يعلق، طلب منها أن تعد له فنجاناً من القهوة وتتركه حتى يفكر، عادت حاملة القهوة لتجده واقفاً في منتصف الحجرة منتظراً إياها، قابلها بلطمة أطاحت بها لترتطم بالحائط ويتبعثر ما تحمل يداها، نظرت إليه في رعب وهي تردد:

- أنا لم أفعل شيئاً، هم من طلبوا يدها وإن لم تشأ فلك الأمر وحدك.

توالت لطماته وركلاته وهو يصرخ في غضب:

- لقد كنتم تتآمرون عليَ إذن، كنت أنت حلقة الوصل بينهما، لقد تركت ابنتك لهم مثل أية عاهرة رخيصة، هل كان يأتي إليها في غيابي؟ أم أنهم كانوا يلتقون بالخارج؟ اعترفي بكل شيء وإلا قتلتك.

توالت صرخات الأم وهي تحاول أن تتحدث من بين دموعها وألمها:

- أقسم بالله أن ابنتك نفسها لا تعلم بهذا الأمر بعد، أقسم بالله، أقسم بالله.

نظر إليها وهو يقول في تهكم يشتعل غضباً:

- وهل تتوقعين مني أن أصدقك أيتها الفاجرة؟ سألقنكم جميعاً درساً لن تنسوه أبداً.

(5)

خرج العريس المنتظر من محبسه الذي قضى به شهرين بعد أن تم الاشتباه فيه أثناء عودته من العمل ليلاً، ولم تستطع هي أو أمها الاتصال بخالتها للاطمئنان عليه أو تهنئته بسلامة العودة. تحاملت على نفسها لتقف أمام المرآة بقدمها الموضوعة في الجبس، نظرت إلى وجهها الممتلىء بالكدمات، مررت يدها على رأسها الحليق في حسرة، انسابت دموعها فمسحتها في سرعة حتى لا تضبط متلبسة مرة أخرى وتحاكم بتهمة عدم الرضا والاستياء، لقد تعلمت من أخطاء ماضيها أن الحب في هذا المنزل خطيئة والحديث عن الحرية تهمة تستحق الاعتقال.

(6)

استسلمتا لقدرهما ولم تفكرا في التمرد ولو سراً منذ ذلك اليوم، عاشتا في كنف الأب وهما تنتظران خلاصاً قد لا يجيء، مرت أيام تلتها شهور وأعوام، والحال هو نفس الحال حتى أوشكتا على اليأس، وحين أتاهما أبوهما بالأزواج لم تملك أي منهما القدرة على الاعتراض. في ليلة عرسها لم تستطع أن تسلم نفسها لزوجها، هكذا تعلمت، وهكذا ترسخ في ذهنها، خافت أن يعلم أبوها فينصب لها محكمة عدله وقد يكون حكمه في تلك الجريمة الإعدام، لم تملك إلا أن تصرخ بكل ما أوتيت من قوة حين حاول الاقتراب منها، هاجت، ركلت، خمشت، دافعت عن نفسها حتى تثبت لأبيها أنها لم ولن تفرط يوماً في نفسها، أطلق الزوج السباب حين سالت الدماء من جروح وجهه، لعنها ولعن يوم رآها، هاتف أباها، اتهمهم بتضليله وتزويجه من "مجنونة"، وحين أشرقت الشمس كانت

تنام في حضن أمها، ولم يتغير شيء في حياتها سوى ما حملته من لقب جديد. رحلت أختها مع زوجها أبعد ما تستطيع، وظلت تتعلل بمشاغل الحياة حتى لا تعود يوماً إلى معتقلها القديم ولو في زيارة خاطفة، فتباعدت أخبارها حتى انقطعت تماماً. وحين رحل الأب وتبعته الأم كانت قد اعتادت وحدتها وتربصه بها في كل خطوة ومفاجأتها في لحظات خلوتها حتى تظل على يقين بأنه لا خصوصية لامرأة في منزله وأنه سيراقبها حتى في الممات.

(7)

أطلقت تنهيدة طويلة، مدت يدها لتخرج منفضتها من مخبأها، أشعلت إحدى سجائرها وسحبت نفساً عميقاً، وقفت تتأمل نفسها في المرآة القديمة المعلقة خلف الباب، أطفأت سيجارتها على عجل، حملت حقيبة يدها بعد أن جمعت فيها أشياءها، ألقت نظرة أخيرة على المرآة، فتحت الباب وخرجت، قبل أن تغلقه وراءها، عادت مرة أخرى إلى الداخل، ألقت بالطرحة السوداء على أقرب مقعد وأغلقت الباب.

هبطت السلم على مهل، ألقت سلاماً متعجلاً على جارة كانت تقف بعتبة بابها، نظرت إليها الجارة دون أن تنطق، أصابها الارتباك، تابعت رحلة هبوطها قفزاً، ارتفع صوت الضجيج المنبعث من الشارع حين اقتربت من نهاية السلم، تسمرت قدماها فجأة عند الباب، تمالكت نفسها، ملأت صدرها بالهواء، زفرته في قوة وهي تستجمع شجاعتها ثم انطلقت إلى الخارج.

تطايرت خصلات شعرها الذهبية مع نسمات الهواء التي هبت فجأة من اللامكان، مضت في طريقها دون أن تأبه لما يدور حولها من همسات، وما يبديه البعض من استنكار واستهجان. ارتعدت فرائصها واهتزت خطواتها حين وجدته يقطع عليها الطريق، ظهرت الرجفة جلية على وجه أبيها من فرط حنقه، زم شفتيه، اصطكت

أسنانه في غضب هادر، نهرها بنظراته النارية، رفع يده وتوعدها بالعقاب، أمرها أن تعود أدراجها لتحتشم وتصلح ما أفسدته في نفسها، والويل لها حين يجمعهما المنزل وتغلق عليهما الأبواب.

خانتها شجاعتها للحظة، أوشكت قدماها أن تخذلاها، دارت بها الدنيا، تحاملت على نفسها، مدت يدها داخل حقيبتها، أخرجت علبة سجائرها بأصابع مرتعشة، وضعت السيجارة في فمها، اقترب لهيب القداحة من طرف السيجارة، تغيرت ملامح الأب لتصبح أكثر عدائية، احمرت عيناه والتقى الحاجبان في شراسة عجيبة، اقترب منها وهو يمد يديه بغية الإطباق على عنقها العاري، نفثت دخان سيجارتها في وجهه المشوه بالقسوة، تراجع فجأة وهو يتلوى في ألم بينما راحت معالم وجهه تتآكل، انهار جسده الصلب وتفتت إلى ذرات، عصفت الرياح مكتسحة كل ما حولها فحملت بقاياه إلى مكان لم يراودها فضولها أن تسأل عنه أو تعرفه، ألقت بسيجارتها حيث كان منذ لحظات، أمسكت النار بكل ملفات القضايا التي كانت مذنبة فيها فذهبت أدلة اتهامه لها أدراج الرياح، خمدت النيران، تطاير الرماد، انطلقت في طريقها، تابعتها العيون في تعجب حتى اختفت تماماً عن الأنظار.

إبن رباب

(١)

سار "هلال" وحيداً على الطريق الترابي الضيق المتاخم للترعة، راح يضرب الأرض بعصاه فينثر الغبار في الهواء الراكد المعلق بين السماء والأرض كدعوات لم تستجب، حاول أن يعدل من مسار قدميه لتأخذه إلى عشته على أطراف القرية، لكنها أصرت الانحراف به رغماً عنه إلى حقول الذرة الواسعة. تناهى إلى مسامعه صوت قادم من بين الأعواد المتمايلة ولمح دخان نار تشتعل على استحياء، شق طريقه نحو مصدر الصوت، انتفض أحد الرجال المتحلقين حول النار في فزع حين برز لهم "هلال" فجأة، استعاذ بالله وحوقل وهو ينظر إليه في حنق قائلاً:

- أنت إيه اللي جابك هنا الساعة دي ياد يا "ابن رباب"؟

نظر إليه "هلال" في غضب مكتوم دون أن ينطق، لم يكن يحب أبداً أن يناديه أحد بهذا الإسم، إن له اسماً، "هلال"، لماذا لا ينادونه به؟ نزحت أمه إلى القرية منذ سنوات بعيدة حين كان رضيعاً تحمله بين يديها وتداري ثديها بطرف طرحتها وهي ترضعه على قارعة الطريق، لم يعرف أهل القرية لها أهلاً، لا زوجاً ولا ماض، ولا حتى بلدة محددة جاءتهم منها، كانت تخبر الجميع دائماً أنها "مقطوعة من شجرة"، توفي زوجها وترك لها الرضيع، ساعدها أهل القرية في بناء عشة على الأطراف البعيدة للحقول، وشرعت تساعد النسوة في دورهن مقابل الطعام أو القليل من المال، وأطلق الناس على ابنها "ابن رباب". ظل "هلال" على صمته وهو ينظر إلى الرجال المجتمعين في الحقل، كان يتمنى في قرارة نفسه أن يأتي يوم ويجلس بينهم، وأن يحمل اسماً حقيقياً مثل باقي الرجال. أشار إليه أكبر الرجال سناً وهو يقول في عطف:

- تعال يا "هلال" اقعد يا بني وشوية والفجر هيأذن ابقى روح في النور، المشي في الضلمة وحش واحنا مبنبقاش في الليل وحدينا.

جلس "هلال" مكانه دون أن يتحدث لأحد، لم يكن يخاف الظلام، أو ترعبه حكايات الجن والعفاريت التي تمتلىء بها القرية الصغيرة، لكنه أراد فقط أن يجلس وسط الرحيق. توفيت أمه منذ أربعة أعوام، كان قد تخطى الثانية عشر، أمسكت النار بجلبابها العتيق وهي تساعد أحد النسوة أمام الفرن، لم يستطع طبيب مستشفى المدينة إنقاذها بعد أن تأخرت في الوصول، ولم تترك له سوى ثروة من الأسئلة التي أصبحت الإجابة عليها مستحيلة. تذكرتها القرية لأيام، ثم نستها، ونسته معها، فأولاً وأخيراً هو "هلال ابن رباب". أصبح مالك العشة بعد أمه، يأكل من هنا أو هناك، يعمل أياماً، ويهيم على وجهه في القرية لأيام، يحتار فيه الجميع، لا يفهمونه، لا يستطيعون أن يحلوا لغز روحه وصمته المريب، حتى صديقه الوحيد "عبد الهادي" عجز عن فهمه كما ينبغي.

(٢)

كان "عبد الهادي" يكبر "هلال" بعامين فقط، لكن القرية كانت تخشاه وتحذر منه أبناءها، فقد انتقل الحديث بين النسوة أولاً ثم تناقل الرجال عن أمه أن ابنها رجل ناضج خلق على هيئة طفل، لم تكن الأم تعني ذكاءه أو فطنته، بل حجم ذكورته، ثم تناقل الأطفال نفس الرواية عندما ذهب ليستحم معهم ذات مرة في ترعة البلدة. تغامزت النساء سراً وهن يشرن إليه، ثم دارت التحذيرات في كل البيوت من ضرورة ابتعاد الأطفال عنه، فذلك النضوج غير الطبيعي لابد ستصحبه رغبات شيطانية ووحده الله يعلم ما قد يفكر فيه ذلك الشيطان إذا اختلى بأطفالهم، شدد الآباء على الأبناء، وتوعدت الأمهات البنات إن لم يحذرنه، وأكد الجميع على ضرورة البعد عنه وعدم الاختلاط به أو أن يختلي بأي منهم في أي مكان .. وإلا!

أما "هلال" فكان اليتيم الذي لا يخاف عليه أحد، لذا كانت له حرية مرافقته، اللعب معه، والتسلل بصحبته في المساء إلى الحقول، ومدافن القرية، والساقية العتيقة، وحتى الأرض البور التي يسكنها الجن كما يشيعون. كانا يتجولان معاً نهاراً حتى يصيبهما التعب

ويدركهما لهيب الشمس فيلجآن إلى كوخ "هلال" يشويان الذرة أو البطاطا أو يأكلان ما جمعاه من الحقول، وأحياناً كان "عبد الهادي" يحضر طعاماً مما أعدته أمه ليتناولاه معاً، وحين تميل الشمس إلى المغيب يعاودان جولاتهما دون أن يعبآ لما وضعته القرية عليهما من محاذير.

(٣)

تملل "هلال" في نومه على الحصيرة وهو ينفخ طارداً أنفاسه في قوة، كان يشعر بالأرق والضيق، وفجأة سمع صوت "عبد الهادي" يناديه من خلف باب العشة المغلق، لابد أن الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً، فما الذي أتى به الآن؟ هب "هلال" من مكانه في سرعة، فتح الباب ليجده واقفاً تحت ضوء القمر محاطاً بهالة زرقاء شاحبة، نظر إليه "عبد الهادي" مبتسماً وهو يقول:

- يلا نروح نعوم.

حملق فيه "هلال" متعجباً وهو يقول:

- دلوقتي؟

أومأ "عبد الهادي" برأسه وهو يقول في سرعة:

- أيوة. أنا اتسحبت من البيت وهما نايمين وقولت ده أحسن وقت ننزل نعوم فيه براحتنا من غير ما حد يشوفنا ويروح يقولهم ولا حد يطلع جري من الميه أول ما يشوفنا نازلين وكأننا هناكلهم.

أعقب جملته بضحكة صافية ساخرة وهو يشير إلى "هلال" باتباعه. سار "هلال" إلى جواره وهو مندهش لذلك الجنون المطبق الذي يعتري صديقه في بعض الأحيان، هل

كان "عبد الهادي" بالفعل كما يقول أهل القرية "راكبه شيطان وهو اللي كبره قبل ميعاده"؟ لكن أهل القرية يقولون أيضاً أن "هلال" نفسه "عليه عفريت ومحدش يعرفله أصل ولا فصل وأمه نفسها كانت ساعات تقول أنها مش عارفة هو جه منين"، وكان "هلال" يزيد شكوكهم وحيرتهم بما يأتيه من أفعال يربكهم بها ويزيدهم نفوراً منه. كان يتسلل في جوف الليل إلى الحقول لتخبره بحكاياتها وتفشي أسرار من مروا بها، يسمع الهمسات، يرى القبلة المسروقة تحت حماية الظلام، ينظر إلى الأيادي التي تجوب الأجساد في غفلة من الجميع، يستمع إلى حديث فاضح بين امرأة ورجل ليس بزوجها، ويرصد رجالاً يتسللون إلى منازل ليست لهم، ونساء يغلقون أبواباً على رجال محتمين بالأسوار، وفتاة تلقي بخطاب من نافذة نصف مفتوحة لشاب يعبر في الميعاد، وحين تتوسط الشمس كبد السماء يتقافز "هلال" في ساحة القرية، يقلد النساء وهن يتغنجن، يتحدث بأصوات رغباتهن، يطلق آهاتهن المحرقة، صرخاتهن المكتومة، وحركاتهن الشهوانية أثناء اللقاء، يفتل بيديه شارباً وهمياً لرجل يعرفه، يتقافز مثله في الفراش معتقداً نفسه أكثر الرجال فحولة وهو لا يعلم أن امرأته تمثل المتعة حتى تثيره ويسرع بفض اللقاء – كما سمعها تسر لجارتها ذات مرة – ويتركها لتنام، وآخر تبذل معه زوجته مجهوداً خرافياً حتى يستطيع القيام بأقل "واجباته" بأي شكل من الأشكال، يضحك البعض، يسبه البعض، وتطارده النسوة بالحجارة والنعال.

(٤)

وصلا إلى الجانب البعيد من الترعة، خلع "عبد الهادي" نعله ووقف منتظراً "هلال" الذي خلع ملابسه استعداداً للنزول إلى المياه، شعر "عبد الهادي" بالارتباك وهو يفكر، فمنذ أن نما جسده وأصبح شاباً ممشوق القوام وهو لم يخلع ملابسه أمام أحد، لم يكشف عورته على أي مخلوق، خاصة وهو يعلم ما له من خصوصية في هذا الموضوع،

لكنهم رجال، ومن الطبيعي ألا يخجل الرجال من بعضهم البعض، فخلع ملابسه وقفز إلى الماء دون أن ينتظر "هلال".

مرت الوقت وهما يتبادلان الحديث عن القرية ونوادرها وما يحدث فيها وما يحلم به كل منهما في الحياة، حتى اقترب الفجر وكان لابد لهما من الرحيل، فـ"عبد الهادي" يخشى أن يستيقظ والده للصلاة فلا يجده وتصبح كارثة. انسل "عبد الهادي" خارجاً من الماء، لم يستطع "هلال" مقاومة فضوله، أراد أن يعرف إذا كان ما تشيعه القرية عن صديقه حقيقي أم أنه محض افتراء، اختلس النظر إليه، كان بالفعل غريباً، هل كان هناك حقاً شيطان يسكن صديقه ويتمدد داخل خلاياه؟ شعر "عبد الهادي" بنظراته المتفحصة فأسرع بارتداء ملابسه وهو يطلب منه سرعة الخروج حتى يعودا من حيث أتيا قبل انبلاج الصباح.

(٥)

جلس "هلال" على الأرض الترابية أمام العشة بينما وقف "عبد الهادي" متطلعاً إلى السماء، رفع "هلال" نظره إليه فجأة وهو يسأله:

- هو أنت صحيح يا "عبد الهادي" راكبك شيطان؟

نظر إليه "عبد الهادي" ساخراً ثم اتسعت ضحكته وهو يقول:

- أنا اللي أركب الشيطان مش هو اللي يركبني.
- أنا بتكلم جد يا "عبد الهادي".
- أنت خايف مني ولا إيه؟
- لا مش خايف، بس الناس كلها بتقول كده وعشان كده بيبعدوا عيالهم عنك.

- طب ما الناس كلها بتقول إنك "ابن حرام" وعشان كده برضه بيبعدوا عيالهم عنك أنت كمان.
- لا أنا ليا أب بس هو مات وأنا صغير.
- أمال متعرفش حتى اسمه ليه يا "هلال"؟

صمت "هلال"، علت وجهه نظرة انكسار، شعر "عبد الهادي" أنه قد جرح صديقه دون أن يقصد، جلس القرفصاء إلى جواره وهو يضمه معتذراً:

- أنت صاحبي يا "هلال" وأنا مبصدقش اللي أهل البلد بيقولوه، أنا عارف كويس إنك ليك أهل وناس، أنا بس بعرفك إن البلد بتتكلم على أي حد وخلاص، وبعدين ما أنا قدامك أهو مفياش حاجة، ولا تحب اتعفرتلك ووريك الشيطان بيعمل إيه؟

ضحك "هلال" وهو يقفز مبتعداً ليقف مدافعاً عن نفسه بينما اتخذ "عبد الهادي" وضع القتال، هجم عليه "عبد الهادي" في سرعة، كبل ساعديه وطرحه أرضاً، اشتبك الاثنان في عراك حميمي، تمرغا في التراب حتى أنهكت قواهما، فعادا ليجلسا متجاورين وهما يلهثان.

(٦)

أنسى مع "عبد الهادي" تعبي ووحدتي وضيق حياتي، أنسى أهل القرية وكلام نسائهم ونظرات رجالهم وضحكات الأطفال، أنسى ما يحدث في شوارعنا وما يدور خلف الأبواب، أنسى رائحة البخور المنبعثة من البيوت، عبق الفجور والرغبات، العرق، الزحام، وشعيرات تنمو على صدورنا الصلبة نستقبل بها الحياة، وعيون تتعلق بطرف رداء قد ينحسر في غفلة فيكشف شيئاً أو أشياء، وشكل قدم مرسوم على الدرب،

وجسد يتمدد ليخطرنا أننا قد بلغنا أعتاب الشباب، أنسى الوقت والزمان، الحدود والمكان، وأظل معلقاً هناك، على جدار صداقتنا.

(٧)

باتت ملابسنا تكشف عن أجساد فتية، صدور عريضة، سواعد مفتولة، ووجوه بها وسامة تميزها عن أي كان، راحت فتيات القرية ونساؤها ينظرن إلينا في كل درب، ينتظروننا عند كل زاوية، يتهامسن وهن يشرن إلينا، حتى صرنا مادتهن المفضلة للحديث والنميمة وإطلاق الشائعات، وراحت اللعوبات منهن يغازلن "عبد الهادي" صراحة لما يعلمنه عن فحولته.

اعتادت بعضهن أن يتركن الترعة بأكملها ويأتين كي يغسلن الملابس والقدور في ذلك الركن البعيد الذي اختصصناه لأنفسنا منذ الصغر، يتمددن على الشريط الترابي الضيق للحافة، يفتحن أرجلهن ويفردنها لتلامس الماء، يحسرن الثوب عنها حتى الأفخاذ التي تحتضن وعاء الغسيل في شبق واشتهاء، يتمايلن للأمام والخلف فتهتز نهودهن في شراسة، تعلو ضحكاتهن الماجنة في غنج مقصود، يتحدثن عن أزواجهن ويصفن ليالي الفراش، يطوحن بشعورهن اللامعة المدهونة خلف ظهورهن في قوة، تطاردنا الوجوه بعيون مرسومة بكحل أسود ثقيل، وشفاه بها حمرة تدعو إلى التقبيل، ينفضن الملابس بعد غسلها فيعرضن علينا أكثر ما يملكنه من ملابسهن الداخلية إثارة للخيال والرغبات، ينهين عملهن ويقمن مستعدات للرحيل، تمر بنا المجموعة وكل منهن تتفنن في التمايل وهز الأرداف، يطلق "عبد الهادي" آهة حارة تجعلهن يبتسمن قبل تبادل النظرات والغمزات ورسائل مشفرة لوعود ومواعيد.

(٨)

يخوض "عبد الهادي" مغامرة تلو الأخرى مع نساء القرية، يخبرني عن زوجة "سمحان" التي كادت تفضحه عندما صرخت حين رأته ثم فرت خوفاً منه، وابنة "محمود" المطلقة التي أصابها الإغماء وهي معه فتركها في حظيرة منزلهم وهرب، وابنة شيخ الغفراء التي دفعت له مائة جنيه حتى تراه فقط، وغيرهن من النساء اللاتي لم تحتمله إحداهن حتى يصل إلى النشوة ويبلغ هدفه. يتحول حديثنا في معظم الأوقات إلى النسوة اللاتي تلاحقنه ويرى في عيونهن الرغبة ووراء كلامهن المستتر تكمن الشهوة والحاجة إلى الإرتواء، أضيق ذرعاً بهذا الحديث، أشعر أحياناً أن ما بيننا يتضاءل، تتقلص مساحته ليحتلها آخرون، مدينتا الصغيرة دنسها الزائرون، تلك الجسور التي أقمناها بيننا تدب عليها خطوات أخرى ليست لنا، ووقت كثير يخصنا وحدنا نقضيه في الحديث عن إناس ليسوا منا.

(٩)

يدعوني "عبد الهادي" لمرافقته حتى أفض بكارة جسدي، يحاول إقناعي وهو يخبرني عن تلك الأحاسيس الشبقة التي يشعر بها في كل مرحلة وشعوره بكل جزء من أجساد النساء، أشرد وأنا أفكر كيف أشرح له وجهة نظري، ولماذا أريد أن أظل بمنأى عن رغباتهن التي تريد تجريدي من الشيء الوحيد الذي أملكه وحدي، جسدي. لا أستطيع أن أخبره أنه يملك كل شيء ولن يضيره إن تنازل عن شيء واحد معهن، أما أنا فلا أملك سوى شيء، وذلك الشيء هو ما يشعرني أنني مثل باقي البشر، لي ملكية وخصوصية، ونطاق ملكيتي لا تتعدى حدود جسدي، هذا هو سري الوحيد الذي لم يفضحه الآخرون.

(١٠)

تطول فترات غيابه عني، ويعود ليخبرني بما حققه من انتصارات معهن، أغدو أقل صبراً، تتضاءل قدرتي على التحمل فيدب بيننا الخلاف، نتشاجر كثيراً، يخبرني أنه صار عاجزاً عن فهمي، غير قادر على استيعاب أسباب ثورتي وحنقي، أشعر بالشفقة عليه وهو لا يعلم كيف يرضيني، تتشوش أفكاري، لا أدري إن كنت محقاً في غضبي لما اقتطعه من حقي فيه لمنحه آخرين، أم أنني أبالغ في ردة فعلي وأعاقبه على ما ليس بذنبه، فوحدتي ومحدودية عالمي الذي لا يضم سواه لا يد له فيه، لكنني رغماً عني لا أجد غيره في حياتي لأقرنه بكل خيالاتي، حتى ذكرياتي في تلك القرية النافرة مني لا أعثر بينها على ذكرى لم يشاركني فيها، ولا أمل عندي أن يحل غيره ضيفاً بحياتي.

أشعر أحياناً أنني أضيق الخناق عليه وأتمادى في محاصرته، أحاول أن أسيطر على مشاعري وأقلل من نوبات هجومي وعتابي، تصفو سماؤنا، نعود طفلين لا يهمنا العالم من حولنا مادمنا معاً، نحفر أرض مشاعرنا، نزيح التراب عن صندوق مدفون في القلب لا يعرف خباياه إلانا، نتذكر أياماً ولت، يضج الفضاء بضحكنا، تدمع أعيننا ونحن نرتج في سعادة، نرتمي على الأرض وأعيننا الدامعة تجوب السماء، نبحث عن تلك النجمة التي اعتدنا أن نترصدها والتي استمعت إلى كل حكاياتنا ونحن صغار، نجدها بعد عناء، انكمشت حتى أصبحت نقطة لامعة في السماء، ضؤها شاحب، تومض في ضعف، تتجه في خطوات ثابتة نحو أفول أبدي لتلتقي بمن سبقنها من نجمات.

تتسلل الرائحة الخضراء إلى مسام روحي فتبعث فيَ ما كنت أظنه في لحظات ضيقي أوشك على الموات، أقترح عليه أن نذهب للسباحة كما كنا نفعل بعيداً عن الأنظار، يضحك "عبد الهادي" وهو يخبرني أن هذا الزمن قد ولى ولم يعد ذلك بالإمكان، فقد كبرنا وأصبح من غير المقبول أن نمارس تلك الألعاب الآن، تذوي نار الأمل التي كانت قد اشتعلت في نفسي أول الليلة، ويخمد داخلي شيء ما.

(١١)

أضحت أخبار شجارات "عبد الهادي" اليومية روتيناً تحفظه القرية بعد أن انتشرت في أرجائها حكاياته مع النسوة، فراح أقاربهن وذويهن يتربصون به في كل طريق، يهددون ويتوعدون، يتشابكون بالأيدي والأرجل، يقسمون بقتله إن فكر في معاودة أفعاله الشنعاء، وكل يوم معركة جديدة مع أقارب إحدى النساء. أصبح "عبد الهادي" مصدر إزعاج دائم للقرية، كثرت الشكاوى، وانعقدت العديد من الجلسات العرفية مع أبيه حتى فاض الكيل بالرجل فقرر أن يزوجه قبل أن ينصرم العام. هبط عليَ الخبر كالصاعقة، ارتعش جسدي وهو يجلس أمامي يحكي ما دار بينه وبين أبيه وما وصل إليه من قرار.

وكما كان متوقعاً، أغلقت معظم الأبواب في وجه "عبد الهادي"، رد طلبه الكثيرون، بعضهم رفضه صراحة، وآخرون بأدب، حتى أفلح أبوه أخيراً في العثور على العروس المطلوبة، فتاة نحيلة، قليلة الجمال، معالم أنوثتها غير واضحة للعيان، وكان من الواضح أن هذا هو السر وراء موافقة أسرتها على زواجها من "عبد الهادي" رغم كل ما دار حوله من شائعات وما لاقته من تحذيرات، فقد كان هو فرصتها الوحيدة. لم يكن راضياً عن العروس، إلا أنني شعرت براحة داخلية لما آل إليه الأمر، فتلك العروس لن تسحره بجمالها، لن تملك حواسه، لن تتفنن في استخدام جسدها ليبقى جوارها أسيراً لشهواته المتقدة، إنها لن تأخذه مني.

جرت الاستعدادات للزفاف على قدم وساق، وبدلاً من أن ينشغل "عبد الهادي" بذلك، صار يقضي جل وقته معي، كان يهرب منهم جميعاً فلا يجد مأوى إلا عندي كما كان يفعل من قبل، وعلى الرغم من عدم قدرتي على تقبل الأمر إلا أنني حاولت أن أجعله يرضى ويتقبل ما هو مقدم عليه، فلأول مرة أراه بمثل هذا الحزن، ومثل هذا الضيق. كادت الدموع تطفر من عينيه وهو يخبرني أنه يفكر في ترك البلدة إلى مكان لا

يعلمه أحد، دق ناقوس الرعب الممتزج بالغضب داخلي، لقد رضيت أن أتشاركه مع آخرين، لكنه الآن يفكر أن يحرمني منه للأبد .. كيف صرت بهذه الأنانية يا صديقي؟

(١٢)

تناست القرية سريعاً ما كان من "عبد الهادي" وارتاح بال الجميع، وتناسى هو نفسه سخطه على تلك الزيجة وحاول أن يجد فيها ما يشبعه، ولم أستطع أنا أن أنسى أنه قد أصبح لي فيه شريك، خاصة بعد أن بدأت زياراته لي تقل بشكل ملحوظ، ويقصر وقتها كل مرة عن سابقتها. تحول غضبي دون أن أدري إلى تلك الناقة العجفاء ضامرة النهدين التي ظننتها صمام أماني فخانتني، كيف تستحوذ عليه بعد أن بذلت كل جهدي في إقناعه بها وبزيجتها المشئومة؟ كرهتها دون أن أعرفها، أصبح بيننا ثأر ينتظر القصاص، ودون أن أشعر وجدتني أقتلها في كل أحلامي.

(١٣)

عادت القرية تتحدث عن "عبد الهادي" من جديد، كانت الألسنة تلوك حكايته الجديدة وهم يستعيذون بالله من شيطانه، فناقته العجفاء "صبرية" صارت في شهور معدودة امرأة تتفجر أنوثة، نفر نهداها الضامران في تحد سافر لملابسها، امتلأ قوامها، حملت قدماها جسداً يهتز مع كل خطوة حتى أصبحت وجمة الأعين وحلم الطامعين، أقسمت البلدة أنه قد زرع شيطانه فيها، وأن ذلك الشيء يفرز مادة سحرية ليست كمادة باقي الرجال.

انتفخ بطنها إعلاناً عما يغمو داخلها فزاد خوف النساء منها وعزلتهم بعيداً عنها، كانت بطنها تنمو نمواً مضاعفاً لا يتناسب أبداً وشهور حملها حتى ليخيل لمن يراها أنها ستنفجر عما قريب، وكانت هي دائمة الشكوى من ثقل حملها ونهمها الشديد لكل ما يؤكل،

استعادت القرية كل ما قيل عن "عبد الهادي" فيما مضى ووضعوه جنباً إلى جنب مع ما يحدث الآن وكانت النتيجة واحدة، إن "عبد الهادي" يسكنه شيطان، ولم يتوقف الأمر عند تحاشي أهل البلدة له ولأسرته، بل أصبح الشارع حيث يقع دارهم منطقة محظورة، لا يمر بها السائرون، وإن اضطروا لاجتيازها تراهم يسرعون الخطى ووجوههم لا ترتفع عن الأرض حتى لا يرون ما قد يقض عليهم مضجعهم أو يلاحقهم في المنام.

(١٤)

مرت شهور حمل "صبرية" سريعاً، وكلما اقترب موعدها كلما زاد نفور "عبد الهادي" وضيقه، فلم يعد مسموحاً له الاقتراب منها أو الحصول على حقه فيها، وزاد من عصبيته وتوتره شكواها الدائمة وصراخها المتواصل الذي حرمهم النوم ليل نهار. لاذ "عبد الهادي" بالعشة أكثر، تغيرت ملامحه، كساها الوجوم، اختفت ضحكته البريئة المجلجلة التي كانت تتحدى الحياة، لم يعد راغباً في الحديث إلا قليلاً، أعيتني الحيل في مساعدته على الخروج من تلك الحالة، احتضنت كتفه وأنا أخبره مراراً أن هذه هي طبيعة الحمل وحال كل النساء، لكنه سينسى كل تلك الأيام حين يحمل وليده بين يديه، حين يهدهده، حين يأخذه بين أحضانه ويقبل أطرافه الناعمة التي ستصير يداً صلبة لرجل ستحكي عنه القرية يوماً ما، كان ينظر إليّ صامتاً، وكنت أعجب لنظراته التي لا أشعر فيها فرحة من ينتظر وليداً على وشك القدوم إلى الحياة، لكنني كنت على يقين أن هذا كله سيتغير حين يحل بحياته الابن المنتظر، فقد تكون رهبة المرة الأولى هي السبب في أزمته الآن، ومع أنني حاولت أن أسانده بكل الطرق الممكنة، إلا أن خوفي من ابتعاده عني أكثر - الذي لم يعد يفصلنا عنه سوى أيام - قد بدأ يزداد، فمن المؤكد أنه سينشغل بهذا الطفل كما انشغل بأمه من قبل، ومن المؤكد أنني سأصير عنده قريباً .. على هامش الحياة!

(١٥)

توالت الطرقات على الباب الخارجي للدار، قام "حسيب" مفزوعاً من نومه، ارتدى جلبابه في سرعة وهو يهرول ليفتح الباب، كان جاره الحاج "أبو عبد الهادي" يقف بعتبة الدار وعيناه زائغتان تتابعان الطريق في لهفة.

بادره "حسيب" قائلاً:

- اتفضل يا حاج .. خير انشالله؟

رد الحاج في انفعال متوتر:

- الله يكرمك يا "حسيب" يابني .. معلش قلقت منامك بس "صبرية" بتولد و"عبد الهادي" مش في الدار ومعنديش حد ابعته يجيبه.

أجابه "حسيب" في سرعة:

- أنت تأمرني يا حاج .. أنا هقلبلك عليه البلد ومش هرجع إلا وهو في إيدي.

أغلق "حسيب" الباب خلفه وهو يردد لنفسه أنه لولا طيبة الحاج وحب الناس له ما أجاب طلبه ولا تدخل في أي شأن يعنيهم، فيكفيه ما يسمعه من أهل القرية بسبب جيرته للبيت الملعون كما يدعونه. أصابه الإجهاد من طول البحث، اضطر في النهاية إلى السؤال عنه رغم علمه ما قد يجره عليه ذلك من ويلات، فأهل القرية لا يحملون لـ"عبد الهادي" وداً، لا يتحدثون إليه، ولا يجتمعون معه في أي مكان، لكن الموقف إنساني، ولابد من تخطي أية ضغائن أو أحقاد. أشار إليه أحد الجالسين بالمقهى أنه رآه يتجه إلى

الطريق الترابي المؤدي إلى عشة "ابن رباب"، زفر "حسيب" في حنق وهو يردد لنفسه "كملت .. كمان هنروح عند "ابن رباب" .. والله عال"!

(١٦)

سار "حسيب" في الطريق الضيق المظلم وهو يدعو الله أن يجده هناك حتى ينتهي من تلك المهمة ويعود إلى فراشه، وقف "حسيب" فجأة في منتصف الطريق وهو يفكر كيف سيسير مع "عبد الهادي" في طريق العودة مخترقاً شوارع القرية ليراهما معاً كل من هناك، ماذا سيقولون عنه؟ أتراهم سيتجنبونه هو أيضاً؟ هداه تفكيره في النهاية أن يتعلل بأي سبب يجعله يترك "عبد الهادي" يعود وحده ليلحق به فيما بعد.

تابع "حسيب" طريقه حتى وصل إلى العشة، كان بابها موصداً، فنادى على "هلال" وهو يصفق بيديه، لم يجبه أحد، فتح الباب وخطا إلى الداخل، كانت العشة خالية إلا من فراش فقير على الأرض، كومة من الملابس المرتبة، نعلان متجاوران، جلبابان معلقان على الجدار، أواني قليلة مرصوصة على الأرض الترابية، موقد نار، ولمبة تتدلي من وسط السقف موزعة ضوءها الضعيف على المكان. خرج "حسيب" ليدور حول العشة دورة كاملة عله يجدهما هنا أو هناك، لكن ظنه قد خاب حين لم يجد حوله سوى الظلام الدامس المسيطر على وجه الحياة.

عاد "حسيب" مسرعاً، قطع شوارع القرية حتى وصل إلى دار الحاج، استعاذ بالله من الشيطان وهو يدق بقبضته الباب، أجابته صرخة مدوية لم يسمع مثلها من قبل من امرأة في المخاض، انطلق فزعاً ليدخل داره، أحكم إغلاق الباب وهو ينتفض رعباً، توالت الصرخات التي عبرت جدران المنازل وترددت في كل الشوارع حتى أقسم الجميع أنهم قد سمعوها في كل الأنحاء.

(١٧)

مرت أيام وباب دار الحاج موصد بإحكام، لم يرهم أحد منذ تلك الليلة، لم تعرف القرية ماذا وضعت "صبرية"، لم يظهر "عبد الهادي"، لم يعرف أحد مكاناً لـ"هلال"، وحتى من لا هَم لهم إلا التلصص وتقصي الأخبار لم يحالفهم الحظ في الوصول إلى سبق يتناقلونه في الجلسات.

(١٨)

توقفت الشاحنة الكبيرة أمام دار الحاج قبل أن يؤذن لصلاة الفجر، استيقظ النائمون على جلبة نقل الأثاث، تورات الوجوه خلف الشبابيك الموارية لتشاهد ما يحدث تحت جنح الظلام، تكدس الأثاث في صندوق الشاحنة ثم خرج الحاج أولاً تبعته زوجته الملتحفة بالسواد، نظرت الزوجة يميناً ويساراً قبل أن تنادي زوجة الابن في همس، عبرت "صبرية" الباب مسرعة وهي تحمل بين يديها ما تنوء بحمله وقد غطته بجلباب كان لأبيه فتخفي وجهه وتلف به جسده كما الأكفان. صعد الحاج إلى الشاحنة، تلته زوجته، رفعت "صبرية" يديها بالوليد لتتناوله الجدة في صعوبة، أزاحت الغطاء عن وجهه قليلاً حتى يستطيع التنفس، جلست "صبرية" بجوارها وهي تغلق باب الشاحنة جيداً قبل أن تأخذ وليدها لتضمه إلى صدرها في حنان.

(١٩)

وقف "حسيب" خلف نافذته يراقب ما يحدث، ورغماً عنه راوده فضوله فاسترق النظر إلى الطفل الوليد، وقعت عيناه على الوجه المختبىء خلف الجلباب، كتم صرخته، أغلق النافذة في سرعة، سقط جالساً على الفراش وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.